مخاطـــــــر الترجمـــــة بيـــــن تسطيـــــم الوعـــــي واختـــــزال المعرفـــــة

أ.د. يحيـــــى الرخـــــاوى – الطـــــب النفســـــي – القاهـــــرة، مصـــــر
yehia_rakhawy@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

أولا :تصدير
ثانيا :تساؤلات مبدئية
ثالثا :محاولة إجابة (فروض مطروحة)
رابعا :مثال تطبيقى من تخصص دقيق:(تشويه الكيان البشري من خلال التخلى عن **اللغة الأم** :فى العلوم النفسية/الطبية)
خامسا :نفس الفكرة موجزة بالإنجليزية (**مقتطف** :افتتاحية سبق نشرها فى دورية علمية)

أولا: تصديـــــــــر

اللغة هى الأصل ، وهى التركيب الغائر للكيان البشري، والكلام أحد مظاهرها، ونحن حين نتكلم عن التعريب نركز على الكلمات ، الأصوات، اللهجات، وكأن القضية هى هذه، والأمر ليس كذلك.

ولا بد – إذن– أن نبدأ من حيث ينبغى ، نبدأ من النظر فى التركيب الكلى لجوهر قوم لهم ثقافتهم الخاصة ، وطريقة صياغتهم للكون من حولهم : تلقيا ، وإصدارا .

وفى مسألة تعريب الطب:لاحظت أن التركيزكل التركيز يكاد يكون منصبا على فعل الترجمة، الأمر الذى يبدو أحيانا وكأنه وضع للألفاظ المعـــجمية المقابلة بجوار بعضها، وقد يصح هذا فى الاجتهاد لتسمية بعض المصطلحات، وخاصة تلك المصطلحات التى تصف أجزاء هى متجزئة بطبيعتها، مثل إسم عصب منفرد أو فقرة عظمية بذاتها، لكن المسألة تختلف تمام الاختلاف حين تكون وصفا إكلينيكيا لمرض أو متلازمة بذاتها، وصفا يخرج من تركيبة عقل ذى بنية أخري، لها ما يميزها، ليس بمعنى الاختلاف وإنما بمعنى التفرد، عقل يعمل فى إطار ثقافة خاصة به، ليخاطب البشر كافة– عبر بنى ثقافته– بشيء له معنى حقيقى .

ويبلغ التحدى أقصى مداه حين يكون هذا المرض أو تلك المتلازمة هو مرض مرتبط بما هو "معرفة "أو ما هو "معتقد "أو ما هو "و جدان"، أو بكل ذلك، مثلما هو الحال فى الطب النفسي.

لكل ذلك: فإن هذه الورقة إنما تؤكد على ضرورة الانتباه إلى أننا ونحن نسعى جاهدين لما أسميناه خطأ""تعريب الطب"، قد نكون مجرد مترجمين لثقافة أخري، من سياق آخر، له تاريخ آخر، الأمر الذى سيصنع منا نفس الأوعية مع اختلاف المحتوى لونا فقط (لا حركة ولا توجها(، وهذا ما عنيته بتسطيح الوعي. ولا يحتوى هذا الكيان الوعائى)المعرب) إلا ما هو: رص معرفى متباعد بعضه عن بعض، ننطقه بأصوات مألوفة لنا (أو لبعضنا) نسميها "لغة عربية"، فنسمى ما نفعله تعريبا، وهذا هو ما أشرت إليه بتعبير "اختزال المعرفة"، وأعنى به اختزال المعرفة إلى مفرداتها المتباعدة.

والرأى عندى أنه إذا كان هذا أو ذاك هو غاية حركة التعريب، فلا داعى لها ولا جدوى منها، والأولى بنا أن نرضى بالصوت الأعجمى الذى قد يوصل لنا كلية معرفية حتى على حساب تركيبنا اللغوي. وبالتالى ، وإذا أصر بعضنا على أن يكون الصوت عربيا : فلتكن التسمية " ترجمة الطب إلى العربية"، وكأن الطب ولد أعجميا ونحن نصبغه بظاهر ألفاظنا !!! وهذا أمر ليس به – فى نظري– ما يستدعى بذل أى جهد صادق فى اتجاهه.

أما المسألة التى تستأهل جهدنا وتوجهنا جميعا فهى أن المعرفة الطبية هى أصل فى المعرفة الإنسانية بكل لغة وتركيب، ونحن نبحث فيها من منطلق تركيبنا اللغوي، فنتعرف على حقائقها فى سياق ثقافتنا، وكلية بنيتنا، وهذا بالذات هو ما يحتاجه الآخرون منا: إن أهل اللغات الأخرى ينقصهم بعض ما عندنا (تركيبا وكليات وسياقا(، كما ينقصنا ما عندهم سواء بسواء، وحين يبدأ كل كيان بما هو، فإنه يصبح قادرا على أن يضيف ليس فقط إلى ما هو، وإنما إلى من يتحاور معه من ثقافات وحضارات ولغات أخري.

ومن هذا المنطلق تصبح الترجمة هى تسهيل للمواصلات بين هذه البنيات اللغوية المتميزة والمتحاورة، وليست تلوينا لنفس الشيء المغترب عنا بألوان نحسب أنها نحن ، وهى ليست إلا طلاء محليا فاسدا.

وهذه الدراسة تتناول مخاطر هذه المسألة، وبعض تساؤلات عامة ومع محاولات إجابة، ثم هى تعرض مثالا من خطر ترجمة العلوم الطبية النفسية، وإن كان لا ينطبق على سائر العلوم الطبية إلا أنه يجسد فكرة هذه الأطروحة بشكل أو بآخر.

ثانيـــــا :تســـــاؤلات مبدئيـــــــة

خطر ببالى أن أعرض هذه التساؤلات دون أن أجيب عليها، وأن تكون من بين ما يطرح فى حلقة النقاش التالية ، وخاصة أننى لا أملك تماما الإجابة عليها، وكل إجاباتى هى اجتهاد محدود ، قد يصل إلى درجة الفرض وقد لا يصل، لكننى عدت فوجدت أن من الأمانة مادام عندى مشروع إجابة، حتى ولو لم يكتمل، فإنه لا بد أن يكون فى متناول المهتمين بالأمر، وخاصة وأنا أعرف أن الوقت لن يسمح بعرض أية تفاصيل حول بعض هذه القضايا، ناهيك عنها جميعا.

وقد جمعت التساؤلات فى مجموعات، وإن كنت قد لاحظت التداخل على الفور، لكنى لم أعمد إلى إلغاء هذا التقسيم التقريبى حتى بعد أن بعد عنى ما يبرره.

المجموعـــــــــة الأولـــــــــى

هى مجرد تغيير ألفاظ واردة بألفاظ من لدفة؟

1- هل نتناول القضية بتساؤل عن:

ما هو الأسهل وما هو الأصعب؟

أم: ما هوالألزم وما هوالأخطر

(ولا أقول: ما هو الأنفع وما هو الأتفه)

2- هل المسألة هى :كل هذا فى إطار: تعريب الطب أم تعريب دراسة الطب، أم دراسة الطب بالعربية

المجموعـــــــــة الثانيـــــــــة

3- هل هناك فروقا جوهرية (ثقافية وحضارية) بين من يتكلمون الإنجليزية بوجه خاص (كممثل للسان الأعجمى الأنجلوسكسونى (وبيننا نحن الذين نتكلم اللغة العربية؟

4- هل هذه الفروق – إن وجدت– هى فروق لغة أم أنها فروق تاريخ ، ودين (وموقف إيمانى (وأهداف وأعراف مختلفة إلخ ؟

5- هل المسألة هى مسألة تعصب قومى لإحياء تاريخ مجد قديم، أم أنها مسألة إتاحة فرصة لحوار حضارات وإسهام بشرى متضفر؟

المجموعـــــــــة الثالثـــــــــة

6- ماذا عن ضرورة التواصل بين العلماء بلسان واحد؟

7- من ينقل مــــــــن مـــــــــن ؟ ومتى؟ ولماذا؟

8- لماذا كان حول حضر محمد على باشا. يدرس الطب بالعربية ؟ وهو الذى لا يجيد العربية أصلا؟

المجموعـــــــــة الرابعـــــــــة

9- هل مازالت غاية مرادنا هى نموذج ما يسمى عصر التنوير؟

10- ماذا عن المستقبليات وأين تقع اللغة العربية بمنظور علوم المستقبل؟

11- ماذا عن العلاقة بالدين (الإيمان) عامة والإسلام خاصة؟

المجموعـــــــــة الأخيـــــــرة

12- هل للعربية سمات خاصة يمكن أن تضيف إلى العلوم، الإنسانية خاصة

13- هل الطب علم إنسانى إمبريقى أم هو من العلوم التجريبية المحكمة؟ وما تأثير التدريس العربية فى ترجيح أحد النوعين على الآخر

14- هل يتغير المنهج العلمى بتغير اللغة أم أن المسألة هى مجرد تغيير ألفاظ

15- هل يستعيد العقل العربى استقلاله وحريته إذا درس وتكلم وبحث بالعربية؟ أم العكس :

]أى هل يستعيد العقل العربى لغته بثرائها وتاريخها وقدراتها الإبداعية إذا استعاد حرية تفكيره وحركية وجوده وحقيقة استقلاله؟[

ثالثـــــا: محاولـــــة إجابـــــة

فروض مطروحة

1- المسألة هى أن اللغة العربية تعلن عن، وتمثل، حضارة راسخة، سجلت بلسان عربى ، وظلت نفس اللغة قائمة كما هى ، بأقل قدر من التشويه، أرسخ من كل لغات العالم الحالية، يرجع الفضل فى هذا اساسا إلى حفظها بالقرآن الكريم وعلومه، فهى تاريخ بشرى قائم بيننا/فينا وربما هو قادر على أن يلحق بنا ينبهنا ، ولعله يسعفنا ونحن نتشوه بلغات جزئية نشأت فى ظروف حضارية مشكوك فى بعض أوجه عطائها (بالذات فيما يتعلق بالعلاقة بالطبيعة وما بعدها: نحو الغيب فالله تعالى(

2- إذن فنحن لا نبحث عن الأسهل، ولا نتكلم بلغة المناظرة بين المذياع والحاكي، وإنما نحن ندعو إلى التفكير باللغة العربية ، وتحريك المعرفة باللغة العربية ، حتى نتمكن من أن نقوم بالتزامنا التاريخي، وحتى لا نتخلى عن كياننا الوجودى أصلا. .

فإذا كان كل المطروح أمامنا هو أن نسير خلف إخواننا فى البشرية الذين سبقونا إلى بعض المعارف ببعض المناهج ، فلا داعى للتعريب أو الترجمة أو أى من هذا الذى يجرى هنا هكذا.

وإذا كنا شركاء فى تاريخ الإنسانية ، وكانت لغتنا هذه الراقية والرائعة هى من ضمن علامات هذه المشاركة، فأولى بنا أن نتمسك بها لنستلهمها عطاء جديدا من منطلق تركيب آخر يخرج من عقل تمت صياغته بشكل مخالف لما هو تجزيء كمي، ذلك التجزيء الذى ساد من خلال بعض لغات الغرب وخاصة الإنجليزية

3- وثمة تساؤل مبدئى أيضا يلزمنا بمراجعة تعبير "تعريب الطب "، فنحن لا نعرب الطب، فالطب – مثل العلم– ليس له لغة، وهو ملك كل من يمارس حرفته بشروطه، وإنما الدعوة المرحلية هى إلى تعريب تدريس الطب والبحث فيه، وحتى هذا التعبير هو خطأ آخر شائع أيضا، لأننا لا نجعل دراسة الطب عربية وإنما نحن نستعمل العربية فى دراسة الطب لا أكثر.

وأهمية الطب بوجه خاص ليكون بلغة من يمارسه هو أن تاريخ هذا الفن العلمى يقول إنه كان دائما من علامات حضارة أى أمة، فتقدم الطب هو من أول النشاطات الدالة على نهضة أمة من الأمم، وهو يأتى فى ذيل قائمة التدهور عند انحلال الأمم، أى أنه أول من ينشط تقدما، وآخرما يضمحل تدهورا ، أفلا ينبهنا هذا إلى أهمية أن يكون بلغة قومه بأى ثمن.؟

4- ثم ننتقل إلى النظر فى أصل التفرقة والتمييز، وهل هناك فروق جوهرية (ثقافية وحضارية) بين من يتكلمون الإنجليزية بوجه خاص (أو كممثل للسان الأعجمى الأنجلوسكسونى (وبيننا نحن الذين نتكلم اللغة العربية؟

وإجابتى أن نعم ، إنه توجد فروق عملية قائمة من ناحية نوعية الحياة اليومية والعلاقات والتوجه والاقتصاد والالتزام بالقوانين، والعقد الاجتماعي، والعرف ، وشكل التدين وغير ذلك مما لا مجال لرفضه هنا.

5- كما أن هناك الفروق الجوهرية الأعمق غورا والأخطر من هذا الظاهر، ولا بد أن أعترف أننى استلهمت تحديد بعض معالم هذه الفروق كفروض من واقعين: لغتى العربية ، وإيمانى)الإسلامى خاصة(، ومن ذلك:

ا– نحن أكثر اتصالا بالطبيعة وحوارا معها وفرصة للتناغم بها:

)لاحظ التشكيل المرن للغتنا وتحديد العبادات بمواقيت تؤكد على حركة الطبيعة المباشرة من حولنا، وضرورة اتصالنا المنتظم بها، ربما للحفاظ على طزاجة وحيوية الفطرة(

ب – نحن أكثر امتدادا فى الزمن.

لاحظ غلبة الجمل الفعلية والمعنى الإيجابى للإيمان بالغيب (وهو ما فسرته باعتباره التأكيد على الحفاظ على فرص تفجيرالإبداع مما "ليس كذلك"، ونفيت بذلك أن يكون الغيب كما ساء فهمه ليس إلا تسليما للخرافة(

جـــ – و نحن أكثرتحديدا للكيان الفردى المتميز:

مع التأكيد على أن الفرد يمثل المجموع فى آن (لاحظ الضمائر المميزة لتنوع الخطاب حسب نوع المخاطب (: أنت، أنت ، أنتما ، أنتم ، أنتن(، وفى نفس الوقت لا حظ فرط استعمال ضمير الجمع "ونحن " نعرض رؤيتنا العلمية أو غيرها، حين نستعمل "نحن "بدلا من صيغة المبنى للمجهول عندهم ..وهكذا.

لاحظ أيضا الخطاب الاسلامى شديد العمومية للإنسانية جمعاء "يا أيها الذين "يا أيها الذين ...، وهو يتبادل مع الحساب شديد التحديد لكل فرد على حدة، وبالتفصيل (بل الإنسان على نفسه بصيرة) (+ومن يعمل مثقال ذرة.. (إلخ

وهذه الفروق –التى هى مجرد أمثلة– ليست تميزا، ولا فخرا خاصا، لكنها تعلن تاريخا مسجلا فى صلب لغتنا من ناحية، وفى عمق تديننا من ناحية أخري

6- فالمسألة ليست مسألة عزة قومية أو تعصب استقطابى)نحن أم هم(، ولكن مادمنا أبناء هذه اللغة ، ومؤمنين بهذا الدين فمن الذى سيحمل أمانة هذا وذاك ليبحث فيه ويضيف منه؟ هل نستورد مستشرقين جدد يقولون لنا من نحن، وبم نتميز؟ هل نكتفى بأن نترجم عطاءهم ، فكأن هذه اللغة ذات التاريخ، القادرة والملهمة، لم تعد تقوم إلا بدور الجارية نقهرها لتقدم لنا الواجب (شكل المعارف) على لسانها الناطق برطانة مترجمة ، أى إهانة وأى مصير !!!!!! أليس فى هذا وحده ما يبرر بعض هذا الموقف الذى يقفه من يتصدى ليشجب هذه الدعوة إلى التعريب ؟ ألا نستشعر من خلال هذاالفرض أنهم برفضهم التعريب ربما يكونون أكثر حرصا على نقاء اللغة وتاريخها مما يفعله المتحمسون السطحيون المترجمون لا أكثر ؟

وبألفاظ أخرى نحن لسنا فى حاجة إلى استعمال أمنا اللغة العربية لتقدم لنا عطاء جارية تملأ وجهها الأصباغ، وخاصة فى الطب إذا كنا نستطيع أن نبنى بالحرائر مباشرة ، حيث مهرهن هو أن نحذق لسانهن الأعجمى ، فلا بأس ولنصن أمنا لغتنا الأصيلة – عن هذه الإهانات والتشويه.

أى أنه : إما أن تكون الأم – العربية – هى الأم الولود وليست الجارية الملطخة بالأصباغ، وإما أن نبنى بأجنبية "آخر صيحة"، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

7- ثم تأتى مسألة التواصل بين العلماء ، فالذين هم ضد التعريب يزعمون أن اللغة الإنجليزية قد أصبحت اللغة العلمية العالمية (الأولى ، أو الوحيدة فى بعض الآراء(، وبالتالى فعلى من يريد أن يواكب مسيرة العلم أن يتكلم بها، ورغم ما يبدو فى هذا القول من حق جزئى لا يمكن إنكاره، وبالرغم من سلامة الرد الجاهز الذى يقول إن دولا شديدة التقدم والقدرة على مواكبة العلم مثل اليابان وألمانيا إنما تدرس و تواكب تحديث العلوم بلغتها جنبا إلى جنب مع لغتها الوطنية، وهى تضيف إلى العلوم بلغتها أساسا، والآخرون ينقلون منها.

ونحن لسنا بلدا متقدما، لكننا نسعى لنكون كذلك، نسعى لنكون فى وضع المشارك أولا، ثم لا يوجد مايمنع من احتمال الريادة، فالتاريخ لا يقصر الريادة العلمية على جنس دون آخر، أو لسان دون آخر، فإذا كانت الحضارة ملكا للجميع ، فالإسهام فى مسيرتها هى مهمة الجميع. ولن نسهم فى مسيرة الحضارة ونحن نحشر فى عقولنا ما يتعارض مع تاريخ هذه العقول ونظامها الغائر.

خلاصة القول فى هذا المقام هو أن العلم أداة لا لغة، فهو أداة تستعملها أية لغة، وتسخرها أية حضارة، فهو– العلم– يظهر فى فترة تاريخية معينة بلسان من يتقدم الركب ، ثم ينقل إلى سائر البشر، ثم تتغير الأدوار حسب غلبة الإسهام وريادة المتقدم، وقصر إعلان مفردات.ومواصفات أداته العلم على لسان واحد هو حرمان للبشرية من إسهام لغات (ذات تراكيب مختلفة) فى العطاء المعرفى والحضارى وفى هذا ما فيه من تقزيم كل أصحاب اللغات الأخرى ليصبحوا مستهلكين للمعرفة لامنتجين لها.

8- ثم نتناول بعد ذلك مسألة الترجمة ، وكأنها هى غايه مرادها نشير إليه بلفظ التعريب، وهذه القضية هى جوهر هذه الأطروحة: وهى أخطرما فى الدعوة إلى التعريب.

صحيح أننا لا بد أن نترجم حاليا ، ولكن هذا ليس هو الهدف النهائى أبدا، إنها مجرد مرحلة لاهثة لزيادة أبجدية العربية وليس لتغيير بنيتها، وهى مرحلة خطيرة ودقيقة ولازمة، لكنها مجرد مرحلة لو أصبحت هى نهاية المراد فالأولى بنا أن نظل نقرأ ونفهم بلغات أخرى .

فالهدف الأكثر محورية – والأبعد منالا فى نفس الوقت– هو أن نستعيد قدرتنا على الصياغة الإبداعية باستعمال الأبجدية القديمة والمعاصرة معا (القادمة من الترجمة) لتخدم التركيب الأساسى لما هو لغة راسخة وقادرة وقابعة فى تكويننا.

وحين كانت العربية هى لغة العلوم أيام نهضة الأندلس وريادة الحضارة العربية كانت أوربا تترجم من العربية، لكنها لا تدرس ولاتدرس بها. وذلك بالرغم من أنهم لم يكن لديهم حينذاك لغة قومية ناضجة قادرة خاصة بكل قومية كما هو الحال الآن، وكان الأغلب منهم يلتقون حول اللغة اللاتينية، فأغلب اللغات الأوربية الحديثة (مثل الإنجليزية) هى لغات حديثة لاحقة لمرحلة الترجمة من العربية بدرجة أو بأخري، ولو أن اللغة العربية كانت هى لغة التدريس والتفاهم والبحث العلمى فى أوربا لمدة كافية لاختلف الأمر.

ثم هاهم يستعيدون الريادة، فالأولى بنا أن نخطط نحن نمثل مافعلوا حتى إذا أتى دورنا ، وهو آت لا محالة ما وجدنا أبجدية كافية للإضافة والكشف. . ..

فالترجمة هى خطوة نحو استعادة كياننا المفرغ من تركيبنا اللغوي، لا أكثر ولا أقل، وإن لم تكن كذلك فهى خطر على لغتنا أكبر من خطر التدريس والبحث بلغات أجنبية.

لا بد أن يكون الأمل هو أن نستعيد كياننا اللغوي، حتى نستعيد قدرتنا على المبادأة ، ومن ثم قدرتنا على الإبداع، وحين نفعل ذلك ونتقدم بحق لنضيف، فسوف يلجأ الآخرون فى طول المعمورة وعرضها لنقل ما أضفنا، يفعلون ذلك مرغمين أو مختارين إن كان لهم أن يلاحقوا الموكب تمهيدا لقيادته وهكذا وهكذا.

9- والقياس الواجب الانتباه إليه، وإن كان قياسا مع الفارق طبعا، فنظرة إلى ترجمة الأدب العربى مؤخرا إلى اللغات الأخرى ،سوف تعطينا إجابات مفيدة عن: متى؟ وماذ؟ وعن من نقلت أوربا –مثلا– مؤخرا الأدب العربى؟ والإجابة أنها اهتمت بنقل الأدب العربى)الرواية مثلا) حين وصلت القيمة الأدبية لرواية ما لمؤلف ما، إلى الدرجة الفنية والإبداعية التى تستأهل جهد النقل.

وقياسا على ذلك فحين نفكر بلغتنا ونضيف بها فى مجال العلوم، فلابد أن نتوقع أنهم سوف ينقلون عنا علمنا حين يستأهل ، مثلما نقلوا أدبنا حين وصل إلى المستوى الذى استحق به ذلك.

10- ثم عودة إلى النظر فى التاريخ ، وإلى التساؤل حول محاولات محمد على باشا ثم إسماعيل باشا لتحديث مصر واللحاق بأوربا، فهذه المحاولات لم تغفل اللغة العربية، بل إن الطب كان يدرس فى مدرسة الطب العليا منذ أكثر من قرن باللغة العربية كأروع ماتكون اللغة وأقدر

وحتى فى محاولة أتاتورك تحديث تركيا لتصبح جزءا من أوربا حذوك القبعة بالقبعة ، هذه المحاولة تمت بكفاءة مناسبة فى كل مظاهر الحياة حتى حروف اللغة التركية، ولكن دون المساس بالتركيب الأساسى للغة التركية ذاتها.

11- ثم عودة إلى الإشارة إلى عصر التنوير منذ الطهطاوى حتى طه حسين، لنقول إنه عصر مجتهد رائع، لكنه لم يعد –أولا ينبغى أن يكون النموذج المطروح فى مرحلة ما بعد التحرير الوطنى ، فهذاالتنوير كان نوعا من ملء البطارية من مولد بعيد، وقد أضاءت البطارية بما يكفى ثم توارت إضاءتها بطبيعتها ، والمطلوب الآن أن نبحث عن مولد قادرعلى توليد طاقة الإبداع وليس أن نعيد شحن البطارية القديمة التى لم تعد تقبل الشحن بنفس الطريقة فى الأغلب فقد انتهى عمرها الافتراضي.

إن إعادة النظر فى معطيات هذه النهضة التنويرية لا بد أن يدفعنا للتوقف قليلا أو كثيرا عند الخدعة التى يمكن أن ننزلق إليها اذا نحن بالغنا تقليده وإعادته بحذافيره تقديسه، أو حاولنا.

وأقدم تنبيها آخر يتعلق بهذه المسألة: فعلاقة مرحلة التنوير هذه بمرحلة التحرير هى عملية موازية لعلاقة مرحلة الترجمة (إلى العربية) بمرحلة التأليف (الإضافة بالعربية(، ذلك أن بلادا مثل بلادنا بعد أن تصورت أنها تحررت ، راحت تصنع اقتصادا مستقلا وهو فى واقع الأمر اقتصاد استعمارى تابع فى كل نماذجه وأسواقه وهيكل علاقاته وطبيعة نموه، فقد استبدلت استعمارا باستعمار وهى تتصور أنها تتحرر.

وهناك الآن – بعد مرحلة التنوير والترجمة – من يتصدى للتأليف بالعربية وهو يتصور أنه يضيف ما تتميز به العربية، مع أنه فى واقع الأمر لايفعل إلا أن يترجم ترجمة مشوهة (لأنها تتحرر من الالتزام بالنص الأصلى (إسما آخر هو التأليف وما هو بتأليف، كل ما فى الأمر أنه يسمح له باستسهال متحرر رخو، بالإضافة إلى ارتكاب جريمة نكراء هى الكذب (أو حتى السرقة). فهذا التأليف المزعوم بالعربيه هو نوع أخطر وأتفه من الترجمة المعلنة والملتزمة.

وليس معنى هذا أن من يتصدى للتأليف باللغة العربية مطلوب منه أن يبدع ما لم يرد فى لغة أخري، وإنما يصبح التأليف باللغة العربية جديرا بكلمة تأليف حين تصبغ الصياغة العربية محتوى الفكر المنقول والمبدع بصبغتها الخاصة بها والمميزة لها، أى حين تصبح كل المعلومات بكل اللغات ليست إلا أبجدية الصياغة، أما الشكل العربى النهائى فلا بد أن يكون شكلا متميزا بهذا التركيب الخاص بهذا المعمار الأصيل : لغتنا العربية.

ولتوضيح هذه النقطة أكثر أقول :إنه ليس مطلوبا من المؤلف بالعربية أن يأتى بالجديد غير المسبوق باللغات الأخري، وإلا فإنه يبدأ من فراغ ولن يصل إلى شيء ذى بال، وإنما المطلوب هو أن تصبح كل المفردات بكل لغة أخرى هى أبجديته القادرة على الانصهار فى بنيته اللغوية الخاصة القادرة بدورها على إعادة إصدارها فى سياقها الجديد تماما، فكثيرا ما نقرأ كتبا مترجمة (أو الأخطر كتبا يقال إنها مؤلفة) وإذا بنا نقرأ حروفا بالعربية تصل إلى أدمغتنا بلغتها الأصلية إن صحت الترجمة، وبلغة هجين لا لزوم لها إن ساءت الترجمة.

وأنا لست ضد الترحمة فى مرحلة الانتقال هذه إذ لا بديل عن ذلك، لكن علينا أن نعلم أنها مرحلة اضطرارية (مثل مرحلة التنوير تماما) ثم بعدها نرى إن كنا قادرين على الإسهام من موقعنا بلغتنا أم لا؟

وبعد مرحلة الترجمة (التى لا ينبغى أن تسمى تعريبا) قد نصل وقد لا نصل إلى مرحلة التأليف بلغتنا ، ويعتمد ذلك على ما نفعله قبل الترجمة وبعدها، قبل الرطانة وبعدها، قبل وبعد كل ما ننطق به وما نسجله كتابة، هذه هى القضية الأساسية لا أكثر.

12-ثم ننتقل إلى مسألة عراقة اللغة العربية وهل هذا الزعم فى ذاته يكفى أن يكون مدعاة للفخر بها، وبالتالى لترديد حكاية أصالتها، ومن ثم تبرير الترجمة إليها ثم التأليف..انطلاقا منها؟. . . إلخ أم أن هناك بعدا آخر؟ بعدا يتعلق بالمستقبل وليس بالماضى بشكل أكثر تحديدا؟

كلنا يعرف ، وبعضنا يتابع، ما يثار حول المستقبل، مما يندرج مباشرة تحت عنوان "علم المستقبل "أو "المستقبليات"، وهذا أمر لا يختص به وطن دون آخر، ولا ينطق به لسان منفرد سواء كان متقدما أو متخلفا، فالمستقبل هو المستقبل فى كل مكان، وهو يعنى كل إنسان من أى لون وجنس، كما ينطق بكل لغات هذه الأرض، ويتأكد ذلك بشكل خاص إذا كان الحديث عن تهديد بالانقراض (من خلال تلوث البيئة أو غباء القادة والعلماء (

فأين تقع مسألة اللغة العربية من المستقبل؟ وهل هى لغة متاحف وعبادة وشعر قديم ؟ أم أنها معمار حى مرن متجدد قابل للإبداع بالإضافة والحذف وإعادة التشكيل؟

والجواب هو أقرب إلى الاجتهاد الآمل منه إلى الحقائق الحاضرة، ذلك أن أغلب المدافعين عن اللغة العربية، مثلهم مثل الفخورين بالحضارة العربية، يبدون لى وكأنهم أمناء متحف، أو شعراء يقفون على الأطلال يبكون الديار ومن هجروها لا أكثر ولا أقل، فإذا صح أن الأمر كذلك، وأن الدعوة إلى التعريب أوالعودة إلى العربية ليست إلا ما هو مثل ذلك، فالأولى بنا أن نتمسك باللغات المستوردة القادرة على صياغة الحياة الآن فغدا.

أما إذا كان الوعى بمسئولية الوجود هوالذى يدفعنا إلى تغيير التعبير من "العودة إلى العربية "إلى "الانطلاق من العربية وبها "..فهنا تستحق المسألة أن نجتهد فيها ونبذل فى سبيلها كل ما تستأهله.

ولأضرب مثلا محدودا سوف يأتى تفصيله فى الجزء الثالث من هذه الدراسة:

لقد وجدت من خلال معايشتى لتخصصى ولغتى أن ثمة مظاهر " تحضر "فى الممارسة الإكلينيكية بما هى ، بنية مكثفة فى سياق وعى خاص ، وأن هذه البنية/ الوعى إنما تحضر بلغتها طبعا، ليس فقط بمعنى حكى الأعراض، وإنها بمعنى الحضور الفعلى لصورة المرض الكلية بما يسمح به تركيب اللغة، ثم تترجم هذه الحالة من لغتها الفجة إلى أقرب تعبير علمى يستعمل فى وصفها وتشخيصها، فأجد أننا نقترب من التعرف على الظاهرة المعنية إذا ما صغناها بما هو أقرب إلى اللغة التى حضرت فى الوعى الخاص بها وخاصة إذا ما تعلق الأمر بالوجدان، أما إذا سارعنا بترجمتها إلى غير لغتها فإن ذلك يفصلنا عن الظاهرة وعن السياق وعن الوعى الخاص الحاضر إكلينيكيا

أنظـر رابعـــا : تشويـــه الكيـــان البشـــرى ..إلــــخ

وما يعنينى فى هذه المرحلة من عرض هذه الأطروحة هو توضيح أننا فى مثل هذه الحالات قد نرتضي–مضطرين– أن نترجم لبعض الوقت ولكن مع حذر شديد خشية أن تفرض الترجمة علينا ما يختزل وجودنا

إلى ما يفيده اللفظ المستعار المحدود باللغة الأجنبية التى وضعت مايقابله، ولتجذب ذلك ينبغى علينا بعد أن نترجم... أن نراجع، ثم قد نتراجع، حتى نقترب من أقرب ما يفيد ، لتأدية المعنى المراد، والذى قد يختلف فى ابعاده وتفا صيله بحسب وضعه مع سياق لغتنا الخاصة نفعل كل ذلك إلى حين أن نعيد بداياتنا من لغتنا– فى حضور لغات أخري– وهذا سوف يسمح لنا أن نضيف أبعادا كادت تختفى من خلال الاختزال إلى لغة أخري، نفعل ذلك انطلاقا من عربيتنا (وليس بالعودة إليها) حتى أن الغريب عنها لا بد وأن يضطر إلى التعرف على طبيعة لغتنا وهو يترجم ما نصفه بها إلى لغته، هذا إن شاء أن يقترب باحترام مناسب مما نرى ونصف ونعالج.

13- ثم ننظر الآن فى أمر آخر ردا على تساؤل يقول: ماذا عن ارتباط اللغة العربية بالإسلام خاصة ؟ (وبالأديان الشرقأوسطية الحالية : عامة(

لا شك أن فضل الإسلام (القرآن خاصة، وتسجيله مبكرا أخص) فى الحفاظ على أصالة، وألفاظ ونبض اللغة العربية ليس كمثله فضل، وهذا يجعلنا ننظر مليا فى الفرق الجوهرى الذى يفرضه موقف التدين العربى)الإسلامى أساسا وغيره كذلك) بالمقارنة بالموقف الشمالى الغربى المرتبط بالعصر الصناعى من جهة، وتأليه الإنسان (الفرد) من جهة أخرى ، ونوع التنمية الكمية المغتربة من جهة ثالثة، واستنزاف الطبيعة من جهة رابعة: كل ذلك قد صاغ الفكر الأوربى فى القرنين الأخيرين، وقد تدخلت هذه الصبغة فى تركيبهم اللغوى حتى أصبحت جزءا لا يتجزأمن مناهج تفكيرهم وبحثهم واستنتاجاتهم وتنميتهم وتخطيطهم.

لكننا نحن بإسلامنا (تديننا عامة) نختلف ، أو ينبغى أن نختلف، ولعل اللغة العربية بثباتها وتحملها كل هذه القرون هى التى حافظت على علاقتنا بالطبيعة، ولعها توحى لنا مؤخرا – إذ نحاول الإفاقة– أن للحياة هدفا آخر، وأن الإنسان ليس إله، وأن المنهج القائم الغالب عندهم والمحتكر لما يسمى علما، لا يفى بسبر غور الحقيقة، كل الحقيقة أوأغلبها ، وأن لنا علاقة متصلة بالطبيعة غير الاقتحام والسيطرة والاستنزاف.

وهذا يجرنا إلى منطقة متداخلة تتعلق بمسألة يطلق عليها إسم بدعة هو "أسلمة العلوم."

ففى الوقت الذى يتمطى مارد المعرفة ليمزق القيود المسماة علمية (بالمفهوم التقليدى للعلم) يتمطى وهو يستشرف آفاق المستقبل نحو الله/المعرفة/القدرة/الإبداع، نتقزم نحن العرب المسلمين خلف قضبان سجن منهج كان مرادفا لما هو علم فى يوم من الأيام، ونحن نسعى بكل ما أوتينا من نقص وحسن نية إلى أن نتمسك بمخلفات عصر الصناعة من مناهج ومعطيات تسمى علمية، وقد صارت كهلة آفلة، ثم نلصقها على ظاهر ديننا فنشوه الكل: الماضى والحاضر والمستقبل، العلم والدين والإيمان.

وكأن أسلمة العلوم هذه هى عملية ترجمة قبيحة من لغة الإسلام إلى لغة العلم (ذلك العلم المحدود بمنهج آخذ فى الأفول) فهى فى النهاية اختزال للإسلام الباقى والملهم (وخاصة بالنسبة لكتابه الكريم) إلى سجن المعطى العلمى المحدود، ويبدو الأمر لى أحيانا فى الاتجاه العكسى :أى ترجمة خاطئة متعسفة من لغة العلوم المحدودة إلى لغة القرآن غير المحدودة، وهذا أيضا تشويه متعسف خطر.

وخلاصة القول فى هذا الاستطراد هو أنه إذا كان القرآن الكريم فالإسلام فالدين عامة قد حافظ على تفرد اللغة العربية وأصالتها ، فإن ما يجرى فى عملية أسلمة العلوم هو إلغاء هذا الفضل، باختزال معطيات الدين واللغة جميعا إلى ما شاع أنه العلم، وهونفس الذى يجرى حين نختزل عطاء اللغة العربية إلى قدرتها على إصدارلفظ يفيد معنى علميا نطق أول ما نطق بلغة أخرى .

وتصحيح هذا الوضع هو أن يكون ديننا – مثله مثل لغتنا– مصدر إلهام معرفى ، وليس مجرد تابع قادر على إصدار نفس الأصوات الغربية الحاوية لنفس المعانى القاصرة: إصدارها بلسان عربى أو نص دينى :هذا اختزال بل تشويه.

وقبل أن أترك هذه النقطة أود أن أنبه على أن ثبات اللغة له جانب آخر قد يكون معطلا إن لم ننتبه إلى ضرورة تجاوزه، وهو أن لغتنا العربية لم تقفل باب التجديد والخلق وولادة ألفاظ جديدة نتيجة لثبات مفرداتها عند ما ورد فى نصوص دينية (أوتراثية(، وإلا أصبحت لغة ميتة عاجزة عن استيعاب حركية الوعى الإنسانى الخلاق، بل إن الفضل كل الفضل للغة ما لا يكون إلا من خلال قدرتها على استيعاب الخبرات الإنسانية المتجددة بتراكيب جديدة فى سياقات جديدة ، بل بألفاظ جديدة ، أو بألفاظ قديمة قادرة على احتواء مضامين جديدة، وهذا وحده هو الذى يعطى أى لغة حقها فى الحياة فضلا عن أنها بدورها تعطى الحياة قدرتها على التحديد والتسجيل والتواصل، وفى هذا، ومن أجله، لا ينبغى أن تحول المعاجم والتفسيرات الثابتة والقديمة دون اقتحام الأصل وتجديده من واقع حركة المعرفة وتخليق الوعى دائما أبدا.

14- وأرد مثلا من تأثرى -لغويا– أثناء ممارسة تخصصى الدقيق : الطب النفسي، فأقول: إن اللغة العربية التى يمرض بها مرضاي، فأعيش معهم نبضها بكل اللهجات، وفى مختلف المناطق، وعلى متدرجات مراتب الوعى ، هذه اللغة قد سمحت لى بالغوص فى الظاهرة البشرية فى الصحة والمرض ، بما لم يكن ممكنا لو أننى فكرت بلغة غير لغتى ، إذن لانتسبت إلى نموذج مختزل لما هو إنسان، يدور ويوقف، يتناثر وينضم، باستعمال بعض المركبات الكيميائية التى تسمى بنفس الأصوات فى كل لغة بكل لسان.

15– فإذا قيل إن هذا خاص بالطب النفسى دون غيره وافقت دون تردد ، لكننى أعود لأذكر وأذكر غيرى أنه من مضاعفات تعلم ، فممارسة ، الطب –عامة– بغير لغتنا أن اندرجت ممارساتنا الطبية تحت النموذج الطبى العصرى المتهم بالميكنة، وفرط استعمال الفحوص غير الضرورية، وتخريب الاقتصاد الفردى والقومي، وبالمبالغة فى الأبحاث الاستلانيه، وفرط التداوى بعقاقير باهظة لا لزوم لها ، بل لا يمكن التكهن –تماما– بمدى ضررها إلخ.

ولكن هل معنى هذا أننا لو درسنا الطب باللغة العربية فإن ممارستنا للطب سوف تكون أكثرإنسانية وأقل ميكنة وأرخص تكلفة إلخ؟

لا أظن أن المسألة بهذه المباشرة، ودعونى أشيرإلى بعض ما جاء سالفا من أن المسألة إن كانت ترجمة من لسان إلى لسان فلا فرق ولا مبرر ولاتغيير، أما إذا كانت الدعوة هى انطلاق من اللغة العربية بما تعنيه من "كلية الحضور "، وفنية الترابط، ودفء العلاقات، والتناغم مع الطبيعة، فلا بد أن تختلف ممارسة الطب –عامة– من واقع العربية ليصبح أقرب إلى العلوم الإنسانية التى تستعمل مفردات العلم، وليس مجرد صيانة أجزاء إنسان لها عمرها الافتراضى لا أكثر.

16-أشرت فيما سبق إلى علاقة اللغة بالدين وأضيف هنا تلميحا إلى حضور الحق تعالى فى الوعى الكيانى للفرد بما يوجه أهدافه، بل ويثرى منهج معارفه، كل ذلك فى مقابل ما ساد فى العصر الصناعى خاصة من منهج، وأهداف ، وطرق تنمية، وتقزيم أهداف، تتعلق كلها برموز ظاهر العقل، ومحدودية رفاهية النفع. (ولا أطيل فى هذا فهو يحتاج لإيضاح مسهب) فأكتفى بأن أعود إلى تأكيد محدود يقول:

إن الانطلاق من لغتنا العربية : تركيبا له بنيته الخاصة، وليس ترجمة عاجزة عن الحركة المستقلة، لهو من العوامل الأساسية التى قد تتيح لنا الفرصة لاختبار منهج آخر أكثرقدرة على سبر غور الحقيقة والإلمام بأبعاد المعرفة، وليس هنا مجال لتفصيل أكثر، وإنما أكتفى بمجرد الإشارة إلى ما سبق أن أشرت إليه من أفول نجم هذا المنهج التجريبى المعتمد على الرصد السلوكى كأساس يكاد يحتكر ما يسمى موضوعية المعرفة، الأمرالذى يتواكب مع مناهج وطريقة تفكير تصبغ الطبيعة الحديثة والرياضة الحديثة ، وتضع فكر أرسطو ، ومن ثم إبن رشد (بل وسقراط، (فى موضعه المتواضع لتفتح الأفق إلى مناهج ومنطق أكثرقدرة وكلية وإحاطة وتداخلا، وكلها مناهج أقرب إلى بنية اللغة العربية القادرة منها إلى التنظيم الخطى المنفصل بعضه عن بعض فى لغات أخرى مسطحة بشكل أو بآخر.

17-وبديهى أن على أن أنبه -بقدر ما أنامنتبه وأكثر- إلى أن المسألة ليست مسألة رطانة محلية نعود إليها أو حتى ننطلق منها لينصلح الحال ، فنبدع الجديد، ونصيغ المنهج البديل، ونسترجع استقلال فكرنا، ونغيرأهدافنا، كل هذا يستحيل أن يتم لمجرد أننا نتكلم العربية ونتقنها، أوأننا نتعلم ونبحث باللغة الأم، بل إننا لو بالغنا فى قيمة دور اللغة فى التطور فسوف ينفصل اللسان عن الكيان، وهنا تقع الطامة الكبرى ، فلا يبقى للعرب (ومن فى ركابهم) إلا لسان قادر على الرطانة دون إبداع، لسان ينطبق عليه نقد أحد أبناء هذه الأمة المشير إلى أن العرب لم يعودوا إلا "ظاهرة صوتية "ليس لها دور أو فاعلية أو معنى أو غاية إلا إصدار أصوات كثيرة عالية أو تدخلة، . .، . و . . وفقط.

إن العكس تماما هو المطلوب وهو ممكن، بمعنى أننا لو تبينا أننا نتميز عن غيرنا، ليس بالضرورة تفوقا، فقط: مجرد تميز، وأن هذا يسمح لنا بالحركة فى مساحة أخرى ، من منطلق آخر، وأن هذا وذاك يتيح لنا فرصة اقتحام مجاهل المعرفة بشكل آخر فى مسار آخر، وأن كل هذا يعنى أن لنا توجه آخر، لو حدث كل هذا فإنه يحتاج إلى أن نفعله من خلال بنيتنا العربية (المتدينة) الغائرة ، التى بعض صورها : النطق بهذا اللسان العربي.

فالعقل العربى لا يستعيد استقلاله وحريته باستعادة النطق بلسانه، وإنما تتاح له الفرصة من خلال استعمال لغته -تركيبا غائرا- بما يتيح تجديدها، ثم هو يستعيد أو لا يستعيد -بحسب مسئوليته وإسهامه- دوره، فريادته على طريق المعرفة / الحضارة/ التطور، فإذا فعل عادت لغته إلى الحياة ثم تطورت بدورها، فأعطت وتحاورت، وإذا لم يفعل فهو الخاسر نفسه ولغته وعطاء غيره فى آن. ولايبقى له إلا أن يتبع ويطيع (ويسمع الكلام !!(

)وبعض التفصيل فى الجزء التالى(

رابعـــا: مثـــال من تخصـص طبـــــى دقيـــــق (الطـب النفسـى)

(سبق نشره)

(تشويه الكيان البشرى من خلال التخلى عن اللغة الأم)

اللغة ليست إضافة لاحقة بظاهر الوجود البشري، الفردى أو الجماعي، بل هى الوجود البشرى فى أرقى مراتب تعقده، إذ هى التركيب الغائر الذى يمثل الهيكل الأساسى الذى يصدر منه السلوك، وبالتالى فهى جزء لا يتجزأ من التركيب البيولوجى للمخ، خاصة باعتباره القائد الحيوى المسئول عن نوعية وحركية مسيرتنا الجدلية المتضفرة، ذلك أن الدراسات الأحدث، جنبا إلى جنب مع المراجعة الأوعي، تشير أكثر فأكثر إلى أن المخ البشري، فى كليته، إنما يتواجد فى حالة نشاط دائم، دورى الأطوار، بالغ المطاوعة(1)، وأن تنظيماته المتداخلة تتعلق تعلقا شديدا بنوع، وكم المعلومات (2) المتاحة، سواء تلك المتمثلة فى الذاكرة الوراثية (الجينات(، أم الواردة من معطيات البيئة المحيطة، ثم من تفاعلهما معا فى جدل ولافى دائم.

واللغة من هذا المنطلق- هى ذلك الكيان البيولوجى : الراسخ/المرن/المفتوح: معا، وبالتالى فهى دائمة التشكيل والتشكل، وليس "الكلام "إلا بعض ظاهرها فى سلوك رمزى منطوق أو مكتوب، على أن الكلام وهو يؤدى بعض وظائفه للتواصل والاقتصاد، يعود فيؤثر ارتجاعا على الكيان اللغوى ذاته، أى على تنظيم وجودنا وفاعليته، لذلك: فإن ما يصيب الكلام من وهن أو تشويش، يفقده قدرته على الإثارة والحفز، أو يطمس دلالته ويجهض إيحاءاته، فيرتد كل ذلك مؤثرا على وجودنا/لغتنا، بما يمكن أن يهز معالم كياننا الحيوى الأساسى نفسه، فنتعرض حتما إلى نكسة تدهورية منذرة بالانقراض.

لكن يبدو أن الظاهرة الوجودية التى قد تصاغ فى "كلمات "هى ظاهرة أسبق وأشمل من التركيب اللغوى الذى يحاول احتواءها، ناهيك عن اللفظ الذى يحاول إعلانها، يترتب على ذلك أن يجد الإنسان نفسه فى مأزق حرج إذ يحاول عبور الهوة بين الظاهرة القبلية المتحررة نسبيا من التشكيل اللغوي، وبين احتوائها فيما يمكن التعبير عنه بالتنظيم الإشارى الدال عليها، وأرجح أن هذا المأزق إذا ما وصل إلى بعض وعى صاحبه بشكل أو بآخر، هو من أدق الخبرات البشرية، وأى استسهال فى محاولة عبوره، بالقفز فوقه تجاهلا، أو بطمس الوعى دفاعا، لابد وأن يترتب عنه إجهاض للمعرفة الأدق، ونكوص إلى اختزال خطر - وقد رجحت أن بعض محاولات تحديد مصطلحات علمية، أو تحديث المعاجم بصورة عصرية متخصصة، إنما يقع فى هذا المحظور.

وهذه الدراسة هى محاولة للتنبيه إلى هذا الخطر الزاحف.

وتظهر آثار هذا الخطر بوجه خاص بشكل محدد فى محاولات العلوم النفسية صياغة الظواهر الكيانية الأساسية، والوظائف النفسية الأشمل، فى إطار اصطلاحى محدد، لايكاد يصلح للإحاطة بالظاهرة، بل ربما يؤذى العملية المعرفية من حيث لا نحتسب، فضلا عما يترتب على ذلك من تشويه للكيان اللغوي= وجودنا الأعمق.

ولنتدرج أولا مع الخبرة الإنسانية بدءا مما يمكن أن يكون "قبل اللغة"، منتهين إلى التعريفات الاجرائية، مارين ببعض محاولات الإبداع الشعري، عارجين على بعض الأمثلة من السكون أو التحريك المعجمى:

(1)وأحسب أنه بالنسبة للكائن البشري، فإنه يصعب - بما هو بشر - أن نفترض أن ثمة مرحلة معرفية يمكن أن تعتبر أنها مرحلة "ما قبل اللغة"، ذلك أنه قد توجد مرحلة "ما قبل الكلام "أو مرحلة ما قبل اللغة القائمة (مرحليا(، لكن يبدو أنه يستحيل أن توجد ظاهرة بشرية أصلا ليست ملتحمة التحاما كاملا بلغتها، بمعنى تركيبها الحيوى الغائر.

وعادة لا تصل هذه المرحلة اللغوية الأولية إلى الوعى الكامل فى الحياة العادية، لكنها فى بعض الخبرات الإنسانية الأعمق يمكن أن تقترب من الوعى بدرجة أو بأخري، وأشهر مثل ذلك هى الخبرة الصوفية الأصيلة على اختلاف مستوياتها، إلا أن طبيعة هذه الخبرات فى هذه المرحلة تحول دون إمكانية تناولها بالأدوات التعبيرية العادية، ناهيك عن الدراسة المنهجية ثم الخضوع للوصف الكلامي، وبالتالى فهى مرحلة تنذر بالخطر إذا استسهلنا القفز منها إلى أقرب ما يمكن أن يحتويها من تراكيب لغوية أقرب ما يمكن أن يحتويها من تراكيب لغوية سابقة التجهيز، أو ألفاظ محكمة "ساكنة"، والتاريخ الطويل (المجهول) للمعرفة الباطنية (أو الجوانية(، وللتواصل غير اللفظى إنما يشير إلى حقيقة جانب من جوانب

وجودنا البشرى لابد من استنتاجه وتصوره واحترامه رغم العجز عن الإحاطة به، ذلك أنه لا ينبغى أن يكون العجز عن التواجد فى ألفاظ محدودة مبررا للإنكار الدفاعي، وإلا فنحن نتنازل عن أصل من أصول وجودنا الأعمق بلا مبرر إلا الخوف من سوء الفهم، أو القصور عن دقة التناول – وهذا وذاك مبرران للحذر، والصبر، والتأجيل، والبحث عن الوسيلة المناسبة، ولكنهما أبدا ليسا مبررين لإنكار الحقيقة الأولية: الأهم والأخطر، وهى :إن الظاهرة الوجودية اللغوية هى أصل الأصول، ظهرت أم لم تظهر فى متناول السلوك، بما فى ذلك السلوك الكلامي.

(2)نأتى بعد ذلك إلى مرحلة "الشعر، وهى مرحلة الجدل الحركى الولافى بين الظاهرة الوجودية الأعمق، إذ تتفجر فى علاقات وتركيبات جديدة، وبين التشكيل اللغوى السابق لها مباشرة، والعاجز عن استيعابها تماما، ويلزم الشعر، فينشأ، حين ترفض الظاهرة أن تظل كامنة فى ما ليس لفظا متاحا للتواصل، وفى نفس الوقت حين ترفض أن تحشر نفسها فى تركيب لغوى جاهز (مسبق الاعداد)– فالشعر هو عملية إعادة تخليق الكيان اللغوى فى محاولة الوصول إلى أقرب ما يشير إلى الخبرة الوجودية المنبثقة، ومع النجاح النسبى لهذه العملية، تزيد اللغة ثراء، أى ينمو الكيان البشرى إذ يتحدد نوعيا، وهذا ما يعنيه بعض النقاد والشعراء من أن القصيدة تخلق الشاعر فى نفس الوقت الذى يخلقها الشاعر. (3(

(3)لكن، ليس كل انسان شاعرا (وإن كان ينبغى أن يكون كذلك بهذا المعنى الأعمق والأشمل للشعر(، لهذا فإن الشخص العادى سرعان ما يختزل خبرته اللغوية/الوجودية الأعمق إلى أقرب لفظ سائد، فيتعامل أكثر فأكثر، بأقل فأقل "مما هو "فضلا عما يمكن أن يكونه، لكن عدم اقتصار الشخص العادى فى تعامله، وظهوره، على "الكلام "كوسيلة أولي، أو وحيدة للتعبير والتواصل المعرفى وغيره، لابد وأن يخفف قليلا، أو كثيرا، من آثار هذه المضاعفة المتواترة، تلك المضاعفة التى تتكثف، وتتفاقم، حين نرضخ لمزيد من تحديد الحركة بتقديس "المقرر "من المصطلحات لاتظل محدودة فى مجالها المتخصص بالنسبة للعلوم الإنسانية خاصة، بل هى تمتد عن طريق الوصاية التخصصية، والإغارة الإعلامية على وعى الناس، تمتد حتى تشغل مساحة رحبة من حياتنا اليومية.

(4)على أن الإغارة الإعلامية لاتزال تلاحق وعى الناس، تفرض عليهم ألفاظا قاصرة، بل وتساهم من جانب آخر فيما يؤدى إلى رخاوة فى اللغة، وتخلخل فى المفاهيم، وأكتفى هنا بالإشارة إلى ظاهرتى "التعتيم " و"التقريب(4)"، لأن استعمالهما استشرى فى التأثير على اتجاهات مجاميع الناس، وحركة مشاعرهم فى مجالى السياسة والدعاية بوجه خاص، حيث درج المناورون على استعمال الألفاظ المحملة بالمشاعر، والمثيرة للاحتياج، بطريقة تجعل اللفظ مجرد غطاء لإخفاء معالم المحتوى الضائع بين ألاعيب السياسة وانفعالات العامة، ومن ذلك فرط الاستعمال المغرض لألفاظ مثل" :الحرية"، و "الديمقراطية"، و "الاشتراكية "و "الثقافة"، و"الحضارة - "حتى أصبح من الممكن أن يدل اللفظ على الشيء، ونقيضه، أو على الجزء بدل الكل، أو العكس، كما يتغير المضمون بتغير قائل اللفظ وغرضه، فى وقت بذاته.

وتساهم ما يسمى بالعلوم النفسية فى تبرير وتشريع هذا الخلط وسوء الاستعمال المشبوه القصد، مثلما شاع فى إدخال بعض مصطلحات الطب النفسى)السياسي!!!) فى مجالات المناورات المفاوضاتية.

(5)على أن دور المعاجم فى إنقاذ اللغة من هذه الفضفضة والرخاوة هو دور محدود، وتتوقف آثاره على فهم معنى ومرحلة وظروف كل معجم، إذ ينبغى التنبيه ابتداء على أن المعاجم ما هى إلا إعلان مرحلة "فى تطور اللغة، وليست فرض وصاية على حركيتها، ولعلنا نلاحظ أن أغلب المعاجم الأقدم (5) تقوم بوظيفتها بأكبر قدر من المرونة حين تعرض اللفظ فى حركته فى أكثر قدر من المرونة فى أكثر من اتجاه، حسب موقعه من السياق، أو حسب تشكيله، أو حسب حرف الجر اللاحق به (أو السابق عليه.. الخ(، فهذه المعاجم لا تعطى للفظ تعريفا محددا، وإنما تورده مباشرة فى استعمالاته المتنوعة حسب السياق الذى لا يقتصر على الجملة الواحدة، بل قد يمتد إلى الفقرة الكاملة (أو حتى الموضوع) – وهكذا تقوم مثل هذه المعاجم بدورها فى عرض "مجالات الاستعمال، وتوجهات الدلالة "أكثر من حبس اللفظ فى تعريف ساكن، الأمر الذى يغلب على المعاجم الأحدث فالأحدث (6(، والذى كاد أن يجعل المعاجم بمثابة المسكن لحركة اللفظ حتى الصمود العاجز، وهذا هو الخطر بعينه.

(6)فإذا انتقلنا إلى السجن الاصطلاحى)العلمى مثلا) فإننا قد نجد مبررا قويا يؤيد – بل ويدعو إلى -التحديد المبدئى لمضمون أى لفظ يرد فى الاستعمال العلمي، وخاصة فيما يتعلق بإتخاذ منهج إجرائى محدد لفحص ظاهرة بذاتها، إلا أنه فى مجال العلوم الإنسانية خاصة، لابد أن ننتبه إلى أن هذا التحديد – مع فائدته المبدئية – إنما يحمل مخاطر الاختزال والتسكين معا، والتوفيق بين ضرورة التعريف، وبين مخاطر التقليص والهمود، لابد من تحديد هذا الاستعمال الخاص، وقصره على إجراء بذاته، بحيث يكون إجراء موقوتا ومشروطا بشروط الدراسة الجزئية المختصة بجانب معين من الظاهرة المعنية، لكن الذى يحدث فى واقع الحال، فى أغلب الأحيان، هو غير ذلك تماما، حيث يؤثر الاستعمال الخاص على الاستعمال العام تحت زعم أن ما هو تعبير علمى هو أدق وأصدق مما هو استعمال شائع، وهكذا يختلط المفهوم العلمى بالمفهوم العام، ثم يتراجع المفهوم العام رغما عنه حتى يختزل ما يحتويه، فتتضاءل الظاهرة قسرا داخل مفترضات علمية (= شبه علمية) غير جازمة وغير مفيد تعميمها، بل هو حتما ضار وخطر.

وبالنسبة للعلوم النفسية بوجه خاص، كما تتناولها اللغة العربية حديثا، فقد وقعت فى أخطاء عديدة جعلتها تتحرك فى نطاق شديد الضيق وهى تتناول بعض ظاهرات مترامية الأبعاد مكثفة الشمول، وأهم هذه الأخطاء أن بداياتها مستمدة من "ترجمة "لما سبق بحثه فى بيئة أخري، بلغة أخري، ثم إن هذه الترجمة لا ترجع إلى فحص الظاهرة المعنية أساسا، وإنما تبدأ من اجتهاد معجمى)ترجمى (قاصر، وحتى بعد هذه البداية المشبوهة لا ترجع هذه العلوم إلى التاريخ التضمينى اللغوى للفظ المستخدم، فتكون النتيجة فى النهاية: أننا نتحرك على أرض لا نعرفها، فى مساحة لا تسعنا، منقطعى الجذور عن تاريخنا من ناحية، وعن نبض وجودنا اللغوى الأصيل من ناحية أخري.

وبما أن هذه المضاعفة الأخيرة هى أقرب ما يكون إلى تخصصي، فسوف أقدم فيها بوجه خاص ما قد يدعم ما أزعمه فى هذا المقال من مخاطر حبس مشاعرنا الإنسانية فى سجن المصطلحات المستوردة.

وبدءا من منطقة بالغة الحساسية شديدة الأثر، وهى المنطقة الخاصة بما يسمى عاطفة أو إنفعال أو "وجدان - "سيكون انطلاقى لمناقشة لفظ الوجدان فى أصله اللغوي، بالمقارنة بمحاولة اختزاله إلى مصطلح علمى (7)، وذلك كمثال لما أعنى من أسبقية الظاهرة الكيانية اللغوية على ما يليها من محاولات علمية إختزالية خاطئة، كما سأحاول أن أقدم هذا اللفظ ابتداء فى حركته المتشعبة، وتوليده المتفجر، لإثبات خطورة (أو استحالة) اختزاله إلى ماهو دونه، فضلا عما هو غيره، ولعلى بذلك أنجح فى بيان قدرة اللغة العربية على الإيحاء بالوافر من التوجهات الواجب الاستجابة لها إذا ما أريد الاقتراب الأدق من حقيقة الظاهرة البشرية كما أحاطت بها لغتنا القادرة.

ولفظ "وجدان "هو مصدر من فعل "وجد) "بفتح الجيم وكسرها) ويختلف مفهوم مشتقات هذا الفعل واستعمالاتها باختلاف رسمه، وتشكيله، وحرف الجر الملحق به، ثم السياق الوارد فيه.

فهو يتضمن أبعادا متعددة فى مجالات مختلفة، لكنها متداخلة بالضرورة:

- 1ففى مجال ماهو انفعال/عاطفة، نجد أنه قد يعنى (8)

(1)الحزن: وجد فى الحزن وجدا، وتوجد لفلان: حزن له، وبدون حرف جر: أنا أجد وجدا: وذلك فى الحزن.

كما يعنى)ب) الغضب: وجد عليه (فى الغضب(، فى الحديث: إنى سائلك فلا تجد علي. كذلك يعنى)جـ) الحب: وجد به وجدا، فى الحب، وله بها وجد: وهو المحبة. وأيضا (د) الكراهية: أوجده على الأمر: أكرهه.

- 2وفيما يتعلق بمعنى المعرفة والتبين: نجد أنه يستعمل عادة بلا حرف جر: وجد زيدا ذا الحفاظ، "ووجدك عائلا فأغني"، وقريب من هذا معنى العثور علي، أو الحصول على :أوجده الشيء جعله يجده: يظفر به.

- 3لكن ثمة معنى يتعلق بالإبداع والخلق: أوجده الله: إنشأه من غير سابق مثال، وهو أقرب إلى الوجود بما هو ضد العدم، وجد: خلاف عدم.

- 4وتمتد المعانى إلى ما يتضمن ما هو أكثر عيانية فيما يتعلق بالإشارة إلى :السعة، والكثرة، والبسط، ومن ذلك: أوجده الله: استغنى غنى لا فقر بعده، ثم الوجد السعة "أسكنوهم من حيث سكنتم من وجدكم"، وأخيرا فالوجد: منقع الماء.

فإذا كان لفظ الوجدان أن يحمل كل تلك المعانى فكيف نرضى أن نقصره – حتى كمصطلح علمى -على استعمال أقره المجمع اللغوى اصطلاحيا ليعنى :أولا: كل احساس أولى باللذة أو الألم، وثانيا: (يدل) على ضرب من الحالات النفسية من حيث تأثرها باللذة الألم فى مقابل أخرى تمتاز بالإدراك والمعرفة – وما جاء من أن هذا هو الاستعمال فى الفلسفة لا يستبعد الاستعمال ذاته فيما يسمى بعلم النفس.

فإذا انتبهنا إلى المحاذير التى قدمناها فى بداية هذا المقال راعنا تصور الآثار التى يمكن أن تترتب على هذا الاستعمال الضيق، الذى حتما سيبعد لفظ الوجدان بكل إيحاءاته السابقة وشموله المترامى عن أى معنى سوى هذا التعريف الخامل، فهو (لفظ الوجدان) سينفصل – بذلك – عما هو نبض إنسانى أعقد تركيبا وأشمل إحاطة، وأعلى ولافا، ثم هو (الوجدان) سوف يلثم كأداة معرفية أسبق عن، وأحد من، ما يسمى تفكيرا (تجريديا(، ثم أين يذهب تاريخ اللفظ وتوجهاته المعقدة المتضفرة فى ذات اللفظ بين الدفع العاطفى المختلف الإتجاه، وبين الإبداع من العدم مغلـــــفا بالقدرة المعرفية المدركة إدراكا سبقيا متصلا بالسعة والقوة والرى والطمأنينة؟؟، ألا يبدو كل هذا من حركة اللفظ كما تجلت لنا مما سجلته بضعة معاجم؟ فما بالك بتاريخه الحقيقى حتى تضمن ذلك، أفلا يشير ذلك إلى أننا لو رضينا بالاستعمال الأحدث للفظ الوجدان بهذه الصورة المختزلة فإننا نتنكر لحقيقة اللفظ وتاريخه؟ إذ نحن نبتعد حتما عن الظاهرة التى نشأ أصلا مواكبا لها فى محاولة احتوائها أو الدلالة عليها – ولا يحتج محاور بأن الاستعمال الأدبى والعام شيء، فى حين أن الاستعمال الفلسفى والعلمى شيء آخر، لأنه إذا جاز هذا الفصل التام فى العلوم البحتة، فهو لا يجوز إطلاقه فى العلوم الانسانية، والنفسية خاصة، ثم إننا بهذا الاختزال إنما نلصق لفظا عريقا كلافتة على ظاهرة لم نتبين معالمها أصلا، بدلا من أن نستلهمه ما ينبغى أن نبحث فيه، لأن اللفظ إذ نشأ وتطور، إنما نشأ وهو يلامس ظاهرة، ثم هو يحاول احتواءها، فيكشف ويكتشف تعدد وجوهها،

وثراء عطائها، فيتحرك فى سياقات متعددة ومتنوعة، ثم يلحق به حرف مساعد، أو تسبقه أداة موضحة، فيقترب ويبتعد، ويجتهد لاحتواء مضمون مناسب لما يريد وصفه، ثم يعجز – عادة فتفيض عن حدوده تولدات الظاهرة الأرحب، فيلاحقها باستعمال جديد، أو يساعده لفظ جديد، وهكذا.

ولقد قلنا سابقا إن الظاهرة أسبق من تسميتها، ولكنها ليست بالضرورة أسبق من لغتها الأساسية، ذلك أن التركيب اللغوى الغائر هو أسبق حتما من التحديد اللفظى)المعجمى بالذات) – ونذكر القاريء هنا أيضا أن التحديد اللفظى المتنوع فى السياق هو أسبق من التحديد العلمى المصطلحي، لكن التحديد العلمى فى هذه المنطقة بالذات من العلوم النفسية – يرتد حتما بالأثر المختزل والمشوه لما هو أشمل لغة وأرحب وجودا.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى محاولة إبداعية عربية (محدودة ومبتورة) اتخذت من هذا اللفظ (وجدان) منطلقا لتقديم ما أسمته ثورة فلسفية (8(، ولا أقول إن هذا اللفظ بمدلولاته اللغوية هو الذى أوحى لصاحب هذه المحاولة بانطلاقته المبدعة، وإنما أرجح أن صاحب هذه الفلسفة حين نبض برؤيته التى تجاوزت اللغة السائدة، إذا به يجد نفسه يقترب من أصول لغته ليلتقى بأقرب ما يمكن أن يضمنه خبرته، وهو لفظ الوجدان المتعدد التوجه، والحاضر حضورا شاملا فى أكثر من مجال وسياق، ومع تفاعل الفيلسوف مع لغته، استطاع أن يعيد النظر، وأن يجدد، وأن يضيف، وأن يجتهد، وأن يتخطى سجن الساكن والمستورد جميعا، وأهم ما فى فلسفة تيسير شيخ الأرض(9) هذه (بما عليها) أنها تقرر ضرورة الرجوع إلى الوجود، لا القناعة بالمجردات العقلية، حيث "الوجدان أصل الذات التى يكون العقل جانبا من جوانبها - "ولن أتطرق هنا إلى استعمالات الفيلسوف لكلمة "الوجدان "والتى بلغت أكثر من ستين استعمالا أصيلا، من أول أنه "القبض على الوجود "إلى أنه "الذات الأخلاقية إذا ما أضيف إليها القوة البديعية حيث يصبح الخير والجمال مضمونه النزوعي."

وأكتفى بهذه الاشارة التى أردت بها أن أؤكد أن حوارنا مع لغتنا فى حركتها الحرة هو الذى يسمح لأفكارنا الجديدة أن تجد ما يحتويها، ولو نسبيا، أما اختصار رؤانا ومشاعرنا إلى أقرب لفظ ينقل ما سبقنا اليه أبناء لسان آخر، فهذا هو الخطر الذى كتبت هذه الدراسة لأحذر منه حتى لو كان مصدر هذا الخطر هو مجمع لغوي، أو مرجع علمي، أو إجراء بحثي، فحين عاد شيخ الأرض (على ما هو) إلى أصول لغته فى نبض جسده محييا تاريخه: قبض على وجوده (على حد تعبيره) فأبدع وأضاف غير هياب (وإن كان قد شطح حتى تجمد(، أما استعمال لفظ الوجدان – كمثال – فى حدود الوصاية المصطلحية أو المعجمية الأحدث، فهو يختزل اللفظ حتى يضمحل عطاؤه الأصلي، فينكمش بلا فاعلية، وتنطمس معالمه حتى يعجز عن الايحاء والإشارة إلى الاتجاهات التى سبق الإشارة اليهأ عبر تاريخه التضمينى الطويل، وكذا إلى الاتجاهات الواعدة المتجددة حسب حركة صاحبها المبدعة.

لكن هذا اللفظ – الوجدان- ، ليس شائعا على كل حال فى الاستعمال اليومى لدى عامة الناس، فإذا كنا قد أثبتنا – بمراجعته – الفرق الشاسع بين تاريخ تضميناته وشمول إيحاءاته، وبين قصور تعريفه المصطلحي، فنحن لم نثبت مدى أثر هذا الاختزال أو التشويه على الكيان الأعمق لمستعمليه هكذا، حيث أن الإعلام لا يقحمه علينا، والناس – عامة الناس – لا تتداوله بما يظهر مخاطر اختزاله، لذلك لزم لكمال هذه الدراسة أن ننتقى مثالا آخر أكثر تواترا بين الناس، وسوف أحاول ذلك أملا فى كشف بعض حركة الإغارة والإحلال التى تجرى ليحل لفظ مصطلحى ساكن، محل لفظ متحرك مرن متفجر، فى حياتنا اليومية، ومن ثم فى تحوير لغتنا (وجودنا) دون وعى كامل أو اختيار مسئول، وقد اخترت لذلك تناول الظاهرة المتضمنة فيما يسمى "حزنا "فأقول:

إنه شاع مؤخرا أن الحزن هو شيء مرفوض أصلا: تماما، وأنه – دائما – نقيض الطمأنينة والسعادة والرفاهية .. ومع انتشار هذه الشائعة، على مستوى "التصريحات النفسية (10)"خاصة، أخذ لفظ "الاكتئاب "يحل محل لفظ الحزن رويد رويدا، حتى كاد أن يصبح أى حزن مهما كان حفزه، أو نبضه، أو اتجاهه، أو توليده، أو غائيته، أو مضمونه، أصبح أى حزن وكل حزن مطالبا بأن يقبع داخل حروف اللفظ الجديد "اكتئاب - " ومع أن ظاهرة الحزن هى أعمق وأرسخ وأقدم وأدق من كل وصف حاول أن يلمها أو يحتويها أو حتى يحوم حولها، فإن حضورها اللغوى الأصيل قد استطاع أن يقترب من حقيقتها بشكل أو بآخر، ولكن حين تسلل "الاكتئاب "زحفا على نبضها خنقها أو كاد، فقد تضخم هذا اللفظ (الاكتئاب) وألح (بالعلم والإعلام معا) حتى كاد يطمس كل ما عداه، فينعكس هذا كله على الكيان اللغوى للظاهرة الأصلية حتى يخل – بالتالى -بحقيقتها أو يشوه جوهرها، بتحريكها إلى ما ليس هو، أو قل: بتسكينها فيما ليس هي، وهذا خليق بأن يجمد المسيرة الإنسانية فى ارتقائها الحيوى والرمزى معا، لأنه ناتج عن وصاية مفتعلة، وليس عن جدل طبيعى خلاق.

ولكـــــن دعنـــــا نبــــــدأ من البدايـــــــة

فالحزن – فى عمق أصوله – هو جزء لا يتجزأ من طبيعة الوجود البشرى :مواجهة فدفعا، ولا أميز هنا بين حزن دافع وحزن معجز، لأن طبيعة دورته تجعله يتناوب حتما بطأ وإسراعا، وضوحا وخفاء، فى ظاهر السلوك بمايوحى بمثل هذه التفرقة التى إن صحت، وصحيح بعضها، فإنها لا ينبغى أن تكون تكئة للاستسلام للرفض التدريجى لكل ما هو حزن تحت ضغط الإعلاء من مطلب "الرفاهية "كمرادف للصحة والسعادة، بل.. و .. الحضارة (كما شاع مؤخرا(، وبالتالي، ورغم التفرقة السابقة التى ننساها من إلحاح التشويه المنظم للظاهرة الأصل، يصبح كل حزن هو ضد هذه القيم جميعا (الرفاهية/الصحة/الاسترخاء الحضاري ..الخ) إذ يتسحب لفظ الاكتئاب بديلا زاحفا يكاد تمتلىء به الساحة.

ولنبدأ بإلقاء نظرة سريعة على ما يقال له "اكتئاب "كما تجمد داخل المصطلح العلمى أولا، فنجد أنه "الإحساس بالحزن وسوء المزاج"، أو أنه "صعوبة فى التفكير.. وكساد فى القوى الحيوية وهبوط فى النشاط الوظيفي "أو أنه "الشعور بالعجز واليأس وعدم الكفاءة والحزن(11) "، وهذا كله صحيح بدرجة ما، وفى حدود ما، فإذا انتقلنا إلى كيف عرضت المعاجم للفظ الكآبة، نجد أنها أكدت على الكم "الكآبة هى شدة الهم والحزن"، وبعضها أكد على ما هو كسر وانكسار "الكآبة سوء الحال والانكسار من الحزن، واكتأب: حزن واغتم وانكسر، وأخيرا فقد تصل الشدة والكسرة إلى الهلكة "أكأب: وقع فى هلكة "فشروط الاكتئاب لغة – من الشدة والكسرة والهلكة – تبدو لازمة بما لا يترادف مباشرة وبلا تحفظ، مع ما هو حزن (تعميما(، إلا أننا من واقع سوء الاستعمال وفرط الاستسهال رضينا بهذا الإحلال، حتى أصبح كل ما "يكدر المزاج "أو "يهدد الرفاهية "مهما كانت درجته أو وظيفته هو كآبة، وبالتالى فهو مرفوض بعد أن انسلخ عما هو حزن بمعناه الأصلي، ثم إن المسألة ليست فى التأكيد على أن ما هو حزن هو أقل شدة من الكآبة أو أصلب عودا، بل فى محاولة بيان أن الحزن هو لفظ آخر له مضمون أشمل، أو هذه الصفات جميعا وغيرها، وباستشارة المعاجم كمنطلق (وليس كمنتهى (نجدنا نكاد لا نرضى بالبداية بوصف الحزن بما هو مقابل نقيضه، باعتبار أن علينا أن نتعرف على الحزن على أنه" :نقيض الفرح وخلاف السرور ذلك أن لفظ الحزن، وخاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار تنويعاته التشكيلية، إنما يتضمن غير قليل من إيحاءات الجدية والخشونة والدفع

بحيث يصعب فصل هذه الايحاءات عن متضمنه العاطفى)الانفعالى(، فالحزن أيضا – ضد السهل المنبسط، حزن المكان حزنا: خشن وغلظ، والحزن: ما غلظ من الأرض، والحزن فيه مواجهة وعناد ولقاء وشدة (12" (شيخ إذا ما لبس الدرع حرن سهل لمن ساهل حزن للحزن"، إذن; فليس فيما هو حزن: كسرة، أو هلكة، وليس فيما هو إكتئاب حفز أو مواجهة أو عناد أو خشونة – لكن الخلط فى ازدياد، والزحف لا يتوقف، حيث أن اللفظ المقابل للاكتئاب، بالإنجليزية Depressionقد دخل إلى الاستعمال اليومى (4)حتى أصبح كثير من الناس يتحدثون عن مشاعرهم العادية بأن عندهم اليوم "دبرشن "قل أم كثر، حفز أم كسر، وبالرجوع إلى لفظ Depressionفى اللغة الإنجليزية (الوصية الأولى على وجودنا المستعار) نجد أن هذا اللفظ إنما يفيد أساسا معنى الحزن فى أسطع صوره، ومعنى الهبوط فى شكله العيانى)إلى أدنى(، ومعنى العتامة Gloominessوالهمود، وحتى فى الاستعمال الاقتصادى الاجتماعى هو يشير إلى ركود السوق والبطالة (12(، وليس هذا مجال التطرق إلى تفصيل تاريخ هذا اللفظ بالإنجليزية، أو علاقته ببعض مترادفاته أو مواكباته من ألفاظ أخرى مثل Dejection أو Boredomأو Griefفكل هذا قد ينحرف بنا إلى استطراد مسهب يخرج عن هدف هذه الدراسة، لكننى رجعت إلى اللفظ الإنجليزى لأنه مصدر الإغارة الزاحفة إلى لغتنا العلمية أولا، ومنها إلى لغتنا اليومية، حتى كاد يصبح هذا اللفظ الأجنبى بأصوله وحدوده هو الوصف المقرر الذى يحدد حركة مشاعرنا، كل هذا ونحن مستسلمون لوهم دقة المصطلح العلمى والحاح الملاحقة الإعلامية.

لكن المقاومة الواعية ضد هذه الإغارة المنظمة من خلال حالة الشعر التى تتحمل مسئولية المواجهة العنيدة للحفاظ على لغتنا بتحريكها من أصولها الغنية إلى وعودها المترامية، وأقول حالة الشعر مستعيرا تعبير صلاح عبد الصبور حتى لا يقتصر الأمر على قرض الشعر، ثم أستشهد به شاعرا فى مواجهة ما هو حزن فى قصيدته "أغنية إلى الله."

(1)حزنى غريب الأبوين

لأنه تكون ابن لحظة مفاجئة

ما مخضته بطن

أراه فجأة إذ يمتد وسط ضحكتي

فهو يبدأ بأن يكتشف فى الحزن قدرته على ذلك الحضور المفاجيء، الذى لا ينفى تراكما سابقا صامتا، وهو أيضا فى هذا المقطع يعارض ذلك الاستقطاب المعجمى الذى يضع الحزن والفرح على أقصى طرفين متباعدين متضادين; فهو يكتشف حزنه ممتدا وسط ضحكته، ثم يروح يصنف الحزن كما عاشه،)يعيشه) لاكما فرض عليه (أو استورده.(

(2)لقد بلوت الحزن حين يزحم الهواء

بالدخان

فيوقظ الحنين

ويهمنى هنا – رغم تحفظى فى نقد سابق (13) – فعل "يوقظ"، وإلى درجة أقل "الحنين"، لما فى ذلك من إشارة إلى قدرة الحزن على الحفز والبعث، ثم إلى ارتباطه بالعلاقة بالآخر – وكل ذلك يتنافى مع ما يشيع عن الحزن (بعد زحف الاكتئاب المصطلحى عليه) من إعاقة وهبوط هامد، وهو يفتح وعينا لحركته المتحدية الأقوي.

(3)ثم بلوت الحزن حين يلتوى كأفعوان فيعصر الفؤاد ثم يخنقه

وبعد لحظة الإسار يعتقه

وهنا يجدر بنا أن نستعيد ما ذهبنا إليه لنؤكد – من واقع لغتنا العربية – هذه القدرة الطاغية التى يتمتع بها الحزن (هذا الحزن) فى إغارته المتمكنة على حركية المشاعر.

(4)ثم بلوت الحزن حينما يفيض جدولا من اللهيب

ومن جوف هذه النار المتدفقة (جدولا)... يشرق الجديد نورا بعثا:

(5)يتجمع فى إشراقة الغد

ثم لأول مرة يستعمل لفظ "الكئيب"، فى زمن يمضي، دون مواجهة; وفيما يتعلق بما هو "ممات"، وكأنه قد التقط ما فى لفظ الكآبة من فراغ ساكن، بالمقابلة بما استشعره فى الحزن من حركة باعثة، حتى أنى رجحت أن جذور هذا الفرح لم يروها إلا نهر الحزن، فدبت الحياة فى الكآبة الممات.

(6)ثم يمر ليلنا الكئيب

ويشرق النهار باعثا من الممات

جذور فرحنا الحبيب.

لكن الشاعر واصل مواجهته للظاهرة فى حركتها الجدلية المولدة، فتبين له بعدا آخر، لعله النقلة بين ما هو حزن، وما هو اكتئاب، حين يعجز الأول أن يبعث، أن يولد، أن يفجر، فلا يعود حزنا، أو هو حزن لم يألفه، لا يعترف به، وكأنه يرفض – معنا – أن يكون هو حزننا الذى يحركنا، فلعله الحزن المفروض علينا شائها، أو مستوردا، أو مجهضا، أو عنينا:

(7)لكن هذا الحزن مسخ غامض غريب

وبنظرة متأنية فاحصة لجدل الشاعر مع لفظ الحزن وهو يعايش الظاهرة المحتمل أن يحتويها، نجد أنه نجح بدرجة مناسبة فى أن يعيد تخليق التراكيب اللغوية المتضفرة، والمتآلفة، والمتناقضة، والمتعاقبة، والمتبادلة، بأمانة مغامرة دون أن يركن إلى مضمون سابق ساكن، أو يحبس نفسه فى ايحاءات مصطلح ساكن، أو معجم خامل، وهذا هو الشعر.

وقد يكون مناسبا أن أعرض لمحة من خبرة خاصة حين هاج بى الشعر فى مواجهة ما يلقيه مرضاى فى وعيى وخاصة حين يرفضون، وأرفض معهم، أن تختزل خبراتهم إلى مصطلح تشخيصى عاجز، هاج بى الشعر فرحت أصف الحزن من خلالهم قائلا:

يتحفز حزن أبلج

حزن أرحب من دائرة الأشياء المنثورة العاصية النافرة الهيجي

حزن أقوى من ثورة تشكيل الكلمات

حزن يصرخ بكما

يشرق ألما

حزن يستوعب أبناء الحيرة

يجمع أطراف الفكرة

يوقد نار الأحرف والأفعال

حزن يحنو، يدمي، يلهب، يصرخ،

يحيى روحا ميتة ضجرة.

)من قصيدة للكاتب لم تنشر: الريح والأحزان.(

وأكتفى بهذا القدر، لأنى قصدت إلى عرض مثال متواضع لعله يبين كيف يقوم الشعر بثورته على التهديد بسجن المشاعر والظواهر الأشمل داخل المصطلح العلمى الشائع – (وللأمانة فلابد من الإشارة إلى ما تحدانى فى اتجاه معاكس وأنا أراجع لفظ الحزن فى التنزيل الحكيم مما لا مجال لتفصيله هنا (14.)

وقد يكون مفيدا بنفس الدرجة، أو أكثر أو أقل، أن نسافر إلى بعض مترادفات ما هو حزن، نستلهم منها أبعاد الظواهر الإنسانية (النفسية) فى أصولها، لعلنا نتحمل مسئولية فحصها كما هي، وكما توحى به، لا كما نستورد شبيهاتها، بما تطمسنا فيه، ولا أجد متسعا فى هذا المقام لا ستطراد مطول، لذلك قسأكتفى بالإشارة إلى لفظ قريب وهام يبدو أنه شغل الشعراء الأقدم، كما شغل لفظ الحزن، الشعراء الأحدث، وفى نفس الوقت، فقد وجدت فى شكله وحركته ما يستلزم الإشارة إليه هنا كمثال توضيحى مساعد، ألا وهو لفظ "الهم"، بادئا بالعلاقة بين ما هو "هم "وما هو "همة"

فالهم لغة ينتمى أساسا إلى العزم على القيام بأمر ما "هم بالأمر ولم يفعله"، لكننى لم أرتح للاستسلام هكذا لشرط أنه لم يفعله، اللهم الا إذا أضفنا لفظ "بعد "أى أنه "لم يفعله بعد - "ذلك أنى حين عايشت اللفظ من الممارسة الذاتية والمهنية والإبداعية، رجحت أن ثمة علاقة خليقة بالعناية ما بين الهم بمعنى الحزن، والهم بمعنى العزم (على(، والهم بمعنى الشدة (بما يحمل معانى الجدية والصعوية والقوة جميعا، المهمات من الأمور الشدائد) – وكل هذا يقربنا أكثر فأكثر من المعانى الإيجابية التى استوحيناها من حركية لفظ "الحزن "فكلاهما (لفظا الحزن والهم) إنما يؤكدان كيف أن الظاهرة التى تشملهما أو تجمعهما أو يحومان حولها.. الخ، هى ظاهرة تتحرك لغويا/كيانيا، من المواجهة إلى الألم إلى العزم إلى الشدة بما يشمل الخشونة والصلابة، وكل ذلك يناقض معنى الكآبة (كما قدمنا) لغة ومصطلحا.

وأجده مناسبا هنا أن أعرج إلى إبن عربى كمثال لمحارب صوفى فحل، لم يحبسه عجز الكلام المتاح عن محاولة وصف خبرته الفيضانية المنطلقة، فراح يبتدع لغته المتجاوزة بكل إصرار ومغامرة، وأجد فى هذا الاستشهاد ما قد يوضح بعض ما ذهبت إليه فى أول هذه الدراسة حين أشرت إلى أزمة المتصوف حين لا يجد لخبرته مايحملها – بأمانة واحاطة – من ألفاظ، اللهم إلا من خلال مثل هذه المغامرات الشعرية الخطرة.

فالهمة عند ابن عربى :(15)قوة وطاقة محركة، وفيها يقول" :إنها تتوجه كطاقة بحركة عشقية "وأنها "تحمل صاحبها: تترقى فيترقى - " وكأن ثمة علاقة جدلية بين "همة "و"إرادة "الوصول، فيناقش ابن عربى مراتب الهمة من همة "تنبه"، إلى همة "إرادة"، إلى همة "حقيقة"، فيتدرج بذلك مع يقظة الوعى إلى تعاظم القدرة (النفس إذا تجمعت أثرت فى أجرام العالم) إلى التكامل مع اللامتناهى)جمع الهمم بصفاء الإلهام(، وأكتفى بهذا المدخل الذى أوضحت من خلاله كيف حاول ابن عربى أن يطوعه لوصف درجات وعيه لأقول إنه نفس اللفظ الذى يشير إلى ما هو حزن، مما يتواكب مع الوعى بآلام مواجهة الواقع بحجمه الموضوعي، وقد تصبح الصورة أكثر اقترابا فوضوحا إذا استشهدنا بموقف بعض الشعراء القدامى مما هو "هم "بالمعنى الذى رجح عندنا:

يقول ذو الرمة:

وكنت اذا ما الهم ضاف قريته

مواكبة ينضو الرعان ذميلها

فالهم هنا يأتى ضيفا، فيكرمه الشاعر ويحسن وفادته، إذ يواكبه صبرا

وتقبلا وتحديا واثقا من أن السير الحثيث، وحمية الحركة، خليقان بأن ينضوا عنه الحزن، وهذا الموقف الواعى هو أرقى بكل قياس مما أصاب مشاعرنا نتيجة للإغارة الاكتئابية المستوردة، والتى جعلت الهم جسما غريبا ونشازا منفرا ينبغى التخلص منه أو اخفاؤه، نفورا: ورفضا.

أما امرؤ القيس، فهو يلتقى بالهم، أو بأنواع الهموم، فى اختيار وجودى مواجه حين يرخى الليل – كموج البحر – سدوله "على بأنواع الهموم ليبتلي"، وهو يتلقى الهموم يهيجها الشوق روادعا "وهاج بى الشوق الهموم الروادع."

وأكتفى بهذا القدر مرجحا أن همة ابن عربى فى ترقيها المتصاعد، ليست بعيدة عن هم ذى الرمة الضيف المواكب، أو عن هموم امرؤ القيس المختبرة والروادع، وهذا ما أردت به أن أنبه على أن البداية من لغتنا الغائرة فى كياننا – وليس من المصطلح المجلوب إلينا – هى السبيل الصحيح للتعرف على حقيقة مشاعرنا وطبيعة وجودنا وحركية وجداننا

وبعد

فأعتقد أنه يحق لى بعد عرض هذه الأمثلة أن أحدد ما ذهبت إليه فى بداية هذه الدراسة فى صورة ترجيحات غالبة، لابد وأن تحتاج إلى مزيد من البحث وإعادة النظر، ومنها:

1- أن الظاهرة أسبق من لفظها.

2- أن لسان كل أمة هو تاريخها الحيوى المتراكم فى عمق وجودها الآني، ولغتها بالتالى هى منطلق معارفها فى مجال ما هو ظاهرة بشرية "معرفية/وجدانية."

3- أن هذه اللغة – حتى بحضورها المعجمى المحدود – فى حركتها الموحية، هى المصدر الأول (وليس الأخير) فى تحديد التوجه نحو ما ينبغى -ويمكن – دراسته من ظاهرات.

4- أن الجدل بين هذا المصدر الأول، وبين الموقف المتجدد منه هو المجال الأصيل لتحريك اللغة وتوليدها، وهو الشعر.

5- إذن، فإن ما يسمى بالعلوم الإنسانية، والنفسية خاصة، ينبغى أن تستلهم مادتها من لسان أهلها، لا أن تستوردها ابتداء من "سلوك "غيرها، كما ينبغى أن تستلهم منهجها من جدل الشعر، لا أن تنقله من قياسات الظاهر، وبهذا فقط: يمكن أن تؤصل وتضيف، لا أن تختزل وتعيق.

6- إن تقديسنا لما هو علم – بالمعنى الحديث الضيق – ينبغى أن يراجع تماما حتى لا يصير النشاط المعرفى حكرا على فئة بذاتها، تمارس من خلاله الوصاية على وجودنا ومشاعرنا، مع عجزها عن الإحاطة بأقل القليل مما هو نحن، بسبب انغلاقها الساكن فى مصطلحات جامدة (مستورد أغلبها) بما يفصلها حتما عن الظاهرة الأصل.

7- لكل ذلك، فإن اللغة العربية بوجه خاص، يمكن أن تؤخذ باعتبارها من أثرى مصادر معرفة أبعاد مسيرتنا أن تحتل مركزها المحورى فى أى محاولة للتعرف على حركية نمونا وامكانية بعثنا، وبالتالى تصبح البدايات منها (لا مجرد الترجمة اليها) هى أكبر إلزاما مفروض على ضمائرنا ومحرك لفعل معرفتنا. وعلينا أن نتوقع إذا أحسنا استلهامها أن تقف فى مواجهة اللغات الأخرى -بما تمثله – فى حوار حضارى يعود على الجميع بالتكامل المحتمل والحتمى إن كان للإنسان أن يواصل مسيرته من واقع إيجابيات بكل لسان.

وقد يترتب على إحياء حركية اللغة – هكذا – والبدء منها أن نواجه تحديات رائعة مضيئة مثل:

1- أن الفلسفة، التى كادت أن تختزل إلى علم كلامى تجريدى منفصل عن الالتحام بالمسيرة اليومية وجدل الوعي، يمكن أن يدب فيها نشاط معرفى وجودى حقيقي، لتعود مغامرة كيانية; تقوم بها ذات استوعبت أكثر من ذاتها، فتستطيع أن تتجاوز مجرد إعادة ترتيب التجريد الــمعطى والساكن والتسوياتي، إلى اعادة تخليق التركيب المعرفى الغائر، وتحريك الكل الجدلى فى صياغة جديدة متوله ومولدة، فتعود الفلسفة تعبيرا عن العمق اللغوى الوجودى فى حركتة الدؤوبة (يقوم بها الأمى والبدائى والمثقف على حد سواء.)

2- وعلم التفسير (تفسير القرآن الكريم) يمكن أن يتحرك من جديد، بعد أن حبسته الألفاظ الساكنة، والروايات المنتهية فى ما كاد أن يجعل ألفاظه الموحية مجرد أطلال تزار كما هي، قد نبكى عليها أو نفرح بها واقفين أو جالسين، مع أنها كيانات حية لابد وأن تتحرك مع الزمن فى كل إتجاه يمكن أن تعد به، فتتجاوز نفسها إلى ما يتخلق منها، وبهذا وحده نفهم النصيحة أنه "أقرأ القرآن كأنه أنزل عليك "ونرفض حتما وصاية المصطلحات العلمية العاجزة فى محاولتها لاحتواء النص القرآنى الحيوي، تحت زعم تفسير علمي; أو ترويج عصري، الأمر الذى لم يقع فيه الرواة من العلماء (والمتعالمين) فحسب، بل الثقات من اللغويين والمفسرين كذلك.

وعلى العلوم الإنسانية (النفسية خاصة)، أن تعيد ترتيب اهتماماتها بحيث تكون منطلقاتها من واقعين أساسيين: الخبرة المباشرة، واللغة الأم، ثم تستعين بعد ذلك – لا قبله – بمسيرة المعرفة الموازية من كل حدب وصوب، وبكل لغة أخرى -ومنهج.

3- أما الشعر، فهو التحدى الدائم بطبعه، وهو – بأوسع معانيه – (بما هو شعر كما ورد فى أول هذه الدراسة) هو خليق مسيرتنا المبدعة فى جدله مع حركية اللغة لتحتوى خبراتنا فى مرونة متجددة بلا انقطاع. (16)

خامسـا: نفـس الفكـرة موجـزة بالإنجليزيـة

(مقتطف: افتتاحية سبق نشرها فى دورية علمية)

Rakhawy ،Y.T. (1987) Psychic Phenomena and the Hazards of Translation .

Egyptian Journal of Psychiatry، 10: 9-.10(Editorial)

Psychic Phenomena and hazards of translation

Language is not an appendage of existence. It is but the most profound biological structure from which behavior ، including speech is derived. The gap between speech ،as a static outcome ،and language ،as dynamic potential ،is to be overcome through dialectic activity in creative verbal synthesis (poetry in its sense).

While psychic phenomena are lived profoundly in direct relation to the basic language structure ،the Egyptian (and Arabic in general) psychological and psychiatric scientific (!!) studies are handling them using translated expressions as the basic tool of communication and alienation away from our actual existence .

Taking our emotional life as an example ،we used to start by importing ،rather than translating ،a foreign word form a foreign language having some foreign definition (and connotation). Then we go on using a structured methodolgy for research ،also imported ،within a fantastic illusion ،that we are scientists!! The available information is usually some redundant ،disrupting ، mutilating and alienating conclusions.

Sooner or later this foreign-body imported data become more and more imprinted ،remodelling and invading our deeper (language) structure ،turning us ،ultimately to some pseudo-existence. We become actually reduced to fit the prison of the foreign word instead of branching to actualize our endless open potential.

If we are to avoid such hazards we have to rearrange matters in a trial to re-put the horse in front of the car. We have to start from our very language structure impregnated by our very history as coded and programmed in our very biology. Then ‹and only then ‹we have to proceed with the appropriate tool to uncover and discover whatever.

For instance ‹starting from an Arabic omnipotent word like WIJDAN we notice that its meaning changes enormously according to the preposition preceding or following it. It has been believed that this word is the proper translation of the English word affect. This is the least true. The Arabic word WIGDAN* could mean to find. It also refers to sadness ‹anger ‹ love and hate (with different prepositions to follow)*. It is still related to the verbs to create and to enrich. It seems that this word WIGDAN is so omnipotent to include connotations having affective ‹motivating and cognitive implications at once.

Starting from our language structure by inspiring what this word WIGDAN could refer to denote and connote ‹we would have been able to approach a complex phenomenon where cognitive ‹affective and creative aspects are included. Instead ‹ what is actually going on now ‹with the present mistransaltion ‹is that the word WIGDAN is reduced unduly to a limited behavioral overt emotional symbol and is denied all other aspects which is but our profound resonance that has originally created the word.

This is also particularly true if we consider another Arabic word describing sadness and related phenomena. All such area has been reduced to a superficial limited sector that is what is imprisoned in the English word depression. This has been translated for some reason or another to the Arabic word IKTIAAB**. The more inclusive mother Arabic word HOZN*** has its positive active aspect ‹as well as its painful handicapping bearings. It is also related to another word HAMM**** which is in turn partly related to certain volitional inclinations. All such aspects are not included in the currently used word depression.

The restrictions (and complications) imposed by the use of such narrow concept are not the least confined to the scientific or professional domains. It has also invaded more and more our everyday life. This endangers beyond doubt ‹our deep language (emotional ‹existential ...etc..) structure ‹through undue remodelling ‹reductionsim and alienation.

To conclude ‹we have to start from our very language ‹to inspire whatever it promises ‹to construct the appropriate research tool and ultimately to prove in ‹discover and promote our (not other"s) own existence .

As such we can go parallel to ‹but not the least separate from others "s objective efforts trying the same way in their own language structure.

Through the same lead ‹we hope to reactivate our existence unfolding our philosophical stand as represented in our deepest structure (language as biology)

Ultimately ‹we can benefit form the efforts of other creative activities to be aware more and more about our psychological existence. Poetry ‹in its broadest sense ‹is ready to act its genuine role as the dialectic creative activity able to remodel the newly erupting existential phenomena into the dynamically growing language structure.

الهوامـــــــش

- مفهوم المطاوعة العصبية Neural Plasticityيعنى قدرة الجهاز العصبى المركزى خاصة على التغير والتشكل، بل النمو والتطور، تبعا لمؤثرات البيئة واستجابة للتبادل والتنسيق مع المستويات بعضها مع بعض.
- المعلومات Informationهنا تعنى كل ما يصل المخ البشرى من مؤثرات جاءت من الوراثة أو من البيئة المحيطة، ولا يقتصر معنى المعلومة على ما هو شائع من معرفة رمزية محددة
- (3)أمضى أغافل المعاجم الجحافل بين المخاض والنحيب، أطرحني، بين الضياع والرؤي، بين النبى والعدم، أخلق الحياة أبتعث، أقولنى جديدا، فتولد القصيدة
-)من قصيدة لم تنشر للكاتب: ياليت شعرى لست شاعرا(
- بالإضافة إلى ظاهرتى التعتيم والتقريب قمت بنحت لفظ "التلتين) "لتن: استعمل ألفاظا لاتينيه بحروف عربية ونطق عربي، وقد فضلت ذلك عن لفظ التعريب المستخدم لهذا الغرض، لأننا مع إفراطنا فى هذه العملية لا نضيف بل ننتقص منها ونمسخها.
- مثلا: لسان العرب، وأساس البلاغة.
- الوسيط مثلا (وإلى درجة أخطر: المعاجم القائلة بتخصصها فى ترجمة فروع العلوم المختلفة، وخاصة العلوم الإنسانية (
- سبق لى محاولة مراجعة ونقد ثلاثين تعريف (بالإنجليزية) لما هو انفعال، أو عاطفة مبينا قصورها جميعا عن الوفاء بتحديد الظاهرة المعنية، وحين لجأت إلى استعمال لفظ "وجدان " تبين لى أنه لفظ أكثر احتواء، وأدق نبضا من أغلب الألفاظ المقابلة والريبة فى لغات أخري، حتى أننى اقترحت نقله كما هو إلى اللغات الأخرى متى ما نجحنا فى استلهام ما يمكن أن يحدد الظاهرة التى يحتويها، أو يشير إليها، انطلاقا من موقعه فى لغتنا نحن، وحينذاك (كما اقترحت) سوف يكتب بالإنجليزية مثلا هكذا Wijdan :دون ترجمة: الإنسان والتطور - السنة الخامسة - ابريل 1983 ص 108 - 150
- أعتمد فى الرجوع إلى معنى اللفظ هنا وفيما بعد على المعاجم التالية: لسان العرب (ابن نظير(، القاموس المحيط (الفيروزبادى (أساس البلاغة (الزمخشرى (ثم الوسيط (المجمع اللغوى.(
- تيسير شيخ الأرض (1973) دراسات فلسفية: محاولة ثورة فى الفلسفة - دار الأنوار - بيروت. وفى تصورى أن العنوان هو من وضع أو اقترح دار النشر دون المؤلف، حيث الأولى أن يكون اسم هذا العمل "الفلسفة الأجدوانية الوجودية "كما كرر المؤلف طوال أطروحته، وهو لا يتردد فى أنها فلسفة جديدة أصيلة، بل "واحدة وحيدة"، ورغم كل ما بهذه المحاولة من شطح ووثقانية (دجماطيقية) إلا أن الاحتفاء بها، والتقاط شرعية منطقها، هو الواجب عند كل من يريد لنا بداية ما نسترجع بها حق

التفكير بأنفسنا مهما جانبنا الصواب، ولا بد أن نعترف أننا لا نجرؤ أن نفكر (نعيش الفلسفة بوعي جديد) بما يسمح بأن نضيف، ومحاولتنا "وحدة المعرفة) "محمد كامل حسين) "والتعادلية) "توفيق الحكيم) مع تواضعهما الشديد لم يستثمرا أصلا، لا نجد مدرسو الفلسفة أو مترجموها أو الباحثون فيها لنتصورهم فلاسفة وهم على الأكثر "علماء " فلسفة، ولغتنا من منطلق هذه الدراسة قد تكون مصدر الإلهام المتجدد لمن يريد أن يغامر فيبدأ من حيث ينبغي.

- أستعمل تعبير "التصريحات النفسية "بعد أن شاعت فتاوى الأطباء النفسيين، وإلى درجة أقل علماء النفس، في الصحف ووسائل الإعلام الأخرى بشكل سطحي ووصاياتي، حتى أصبحت المقولات العلمية أشبه بتصريحات الساسة والإعلاميين منها إلى أفكار المتخصص ومسئولية العلماء.
- اكتفيت بهذه التعريفات من الموسوعات والمعاجم المتخصصة دون الدخول في تفاصيل
- (12)Webester"s New Collegiate Dictionary
- (13)يحيى الرخاوى " (1981) وهل يعود يومنا الذى مضى من رحلة الزمان) "في رثاء صلاح عبد الصبور الإنسان والتطور، العدد 4، السنة الثانية ص 57 - 64
- (14)وقفت طويلا أمام ورود لفظ الحزن بمختلف أشكاله في التنزيل الحكيم، ورغم أن الإيحاء العام الذى وصلني للوهلة الأولى هو ضد ما ذهبت إليه من التأكيد على عدم إغفال الجانب الإيجابي لما هو حزن، فإني لم أستسلم لهذا الإيحاء كاملا في عودة أعمق، لكني أثبت هنا بصفة مؤقتة بعض الإشارات حتى أعود إليها تفصيلا:
- أ – لاحظت أن فعل الحزن جاء منفيا في حوالي 80%من وروده في كل التنزيل.
-)ب) لاحظت أن هذا النفي)والنهى كذلك قد ورد أحيانا جمة، وبعدها حرف "علي) "أمر بذاته(، وهذا غير الحزن الذى أردت الدفاع عنه في هذه الدراسة.
-)جـ) لاحظت أن فعل حزن كثيرا ما يتعدى مع ذكر مفعوله، وهذا أيضا غير ما عنيته هنا.
-)د)- إذا ما اقترن الخوف بالحزن (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) – فإن الأمر يختلف كذلك.
-)هـ)- في الأحوال القليلة التى لم يقترن الحزن بالخوف، ولم يتعد إلى مفعوله، ولم يحدد بحرف "علي "فإنه كان يقترب من المعنى الذى عنيته في هذه الدراسة) إنما أشكو همى وحزنى إلى الله.(
-)و) وكان الاستعمال الوحيد في معنى المواجهة مجسدا في كيان شخصى "ليكون لهم عدوا وحزنا."
- ثم انتبهت إلى أن الاستعمال في المقام الديني الواعد بالأمان قد لا يلزم النص الديني أن يكشف عن حركية التناقض التي حاولنا أن نــقدمها كوجه إيجابي لما هو حزن، مما لا ينبغي معه أن يكون النص الديني وصيا على غيره – لغة – في مجالات أخري.
- (15)سعاد الحكيم (1981) المعجم الصوفي - دندرة للطباعة والنشر. بيروت
- (16)تجنبت الإشارة عمدا إلى ضرورة تعديل ومواجهة الإغارة الإعلامية والتقليل من "التصريحات النفسية"، لأني أتصور أن هذا وذاك هما نتيجة لتدهورنا بقدر ما هما سبب له، ولا أحسب أن التقليل من الإعلان عن فساد وجودنا، واسترخاء تفكيرنا واستسلام مشاعرنا، هو السبيل إلى تحريكنا نحو مواجهة مسئوليتنا والدفاع عن كياننا

إذا انصرفت نفسي عن الشيء مرة ، فلست إليه آخر الدهر مقبلا
وإني، إذا ما الهم ضاف قريته زماعا، ومرقال العشيات عيهلا

أجمـل التهانـي و أطيـب الأمانـي 2010

بســم الله الرحمــن الرحيــم

من أسبوعين احتفلنا بسنة قمرية جديدة أرّخ بها المسلمون بداية "التقويم الهجري" فكانت السنة الهجرية 1431، واليوم نقدم التهنئة بسنة شمسية جديدة أرّخ بها المسيحيون بداية "التقويم الميلادي"، أجمل التهاني و أطيب الأماني 2010 ...

وكلها "مناسبات كونية"...

يقف الإنسان عندها، مهما اختلف دينه وعرقه وجنسه...

يقف عندها هذا الكائن المجهز بـ"**ملكة الاعتقاد بالغيب**" إلى جانب ملكة "**إدراك العالم الحسي (عالم الشهادة)**" و الوحيد دون سائر المخلوقات (لحد علمنا)...

يقف عندها مكرّما بعد أن فضله " خالقه" على كثير ممن خلق...

ونحن، أخصائيي العلوم النفسية..

الباحثين في مجاهل النفس الإنسانية وشعابها...

الساعين إلى فك شفرتها وقراءة أبجديتها (علّ بصيرتنا تبصرما خفي عن بصرنا و سمعنا)...

هي مناسبة لنا أن نقف وقفة نحوّل فيها وجهة تفكيرنا/بصيرتنا إلى الكون الممتد الشاسع...

اليوم تكون الأرض قد أكملت دورة كاملة حول الشمس) و هي تدور منذ 4.5 مليار سنة (لتبدأ غدا دورة جديدة، شبيهة بما سبقها وغير شبيهة بها، فتكون سنة جديدة... لتكمل والمجموعة الشمسية دورة كاملة حول مركز مجرة "درب البانة" كل 200 مليون سنة، ومجرتنا واحدة من **بلايين المجرات** المنتشرة بين الطاقة المظلمة والمادة المضلمة في هذا **الكون العظيم** والذي لا يعلم مداه إلا خالقه.

أنار الله بصيرتكم/بصيرتنا وزادكم/زادنا في العلم بسطة. وكل عام وأنتم شاهدون، سائلون، متسائلون، ساعون للخير، ضامين جهودكم لما فيه رفعة الإنسان وعزه وكرامته.

الدكتور جمال التركي